Twitter: @alqareah
1.5.2016

أليخو كاربنتييه

مملكة هذا العالم

رواية

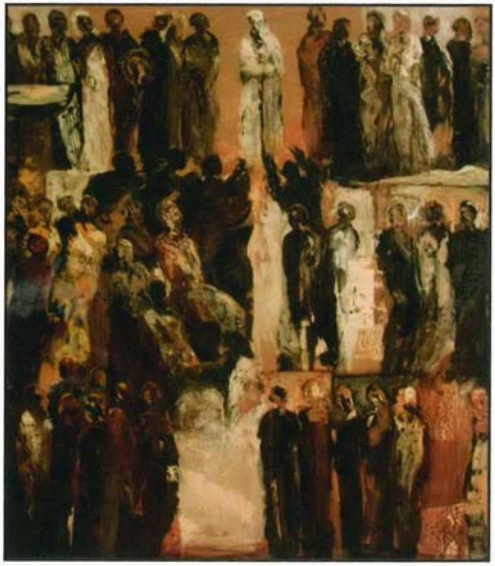

ترجمة: محمد علي اليوسفي

أليخو كاربنتييه

مملكة هذا العالم

رواية

ترجمة: محمد علي اليوسفي

Twitter: @alqareah

مملكة هذا العالم

Twitter: @alqareah

* أليخو كاربنتييه
* مملكة هذا العالم
* ترجمة: محمد علي اليوسفي
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2008
* موافقة وزارة الإعلام رقم 99274
* الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

Twitter: @alqareah

تقديم

ولد أليخو كاربنتييه في هافانا عام 1904. وكان أبوه مهاجراً من أصل فرنسي. درس في كوبا ثم خاض العمل الصحافي ابتداء من 1922 وحتى 1927 عندما شارك في توقيع بيان ضد الطاغية ماتشادو فأودع السجن سبعة أشهر.

بعد ذلك ساعده دسنوس في السفر إلى فرنسا حيث قابل كينو وليريس وأرتو وبريفير وغيرهم وعمل في راديو باريس مع دسنوس وديهارم ثم في راديو لوكسمبورغ.

سافر وألقى محاضرات في فنزويلا حيث أقام أربع عشرة سنة ثم عاد نهائياً إلى كوبا عام 1959 منذ انتصار الثورة الكوبية.

أمضى أعوامه الأخيرة سفيراً مستشاراً في سفارة كوبا بفرنسا، حيث مات في 24 نيسان 1980.

من أعماله الروائية: تقسيم المياه، صيد الإنسان، عصر الأنوار، حرب الزمن، الرقصة المقدسة، الخ...

«مملكة هذا العالم» من رواياته الأولى التي تنطلق من معطيات تاريخية ووقائع حدثت في سان دومينغ، الاسم القديم لجزيرة هايتي التي تقع شرقي كوبا وتضم دولتين مستقلتين: جمهورية الدومينيكان وجمهورية هايتي.

Twitter: @alqareah

وتقدم الأحداث التاريخية إطاراً لرواية باطنية من جوانب عديدة، تحفل بالسحر والتحولات والتقمص في ديانة «الفودو» وهي مزيج من عبادة ذات مبدأ إحيائي ينسب روحاً للظواهر الطبيعية ويحاول جعلها مؤاتية بطقوس سحرية، تستعير عدة عناصر من الشعائر الكاثوليكية لتشكل ديانة زنوج جزر الآنتيل، في مواجهة المذابح والدمار والحرائق التي تحفل بها أحداث الرواية.

محمد علي اليوسفي

تونس

Twitter: @alqareah

الجزء الاول

إبليس

استأذن في الدخول...

العناية الإلهية

من؟

إبليس

ملك الغرب.

العناية الإلهية

أعرف من تكون، أيها الرجيم.

ادخل.

(يدخل)

إبليس

أيتها المحكمة الموقرة،

أيتها العناية الأبدية!

Twitter: @alqareah

أين عساك ترسلين كولومبوس

لتجديد آثامي؟

ألا تعلمين أنني من زمن طويل

أَسُودُ في تلك الاماكن؟

لوب دي فيغا(*)

(*) كاتب إسباني ولد في مدريد (1562 - 1635) مؤلف أربعمائة مسرحية دينية وألف وثمانمائة مسرحية دنيوية بالإضافة إلى أشعار ورواية احدة: أركاديا. م.

Twitter: @alqareah

1

رؤوس الشمع

من بين عشرين جواداً فحلاً نقلها قبطان سفينته متواطىء مع مربي حيوانات نورمندي إلى «الكاب الفرنسي»، اختار تي نويل، بلا تردد، فحلاً له قوائم بيضاء وردف مكور، صالح لركوب إناث الخيل التي كانت تلد أمهاراً أصغر حجماً في كل مرة. أما السيد لونورمان دي ميزي الذي يدرك جيداً مدى مهارة العبد في مجال الخيول فقد دفع ثمناً نقدياً عالياً من دون إعادة النظر في قراره. كان تي نويل يسترخي على صهوة الجواد المرقط، بعد أن وضع له لجاماً من قنب، بينما يسيل على فخذيه عرق دهني سرعان ما يتحول إلى رغوة حامضة على وبر الحصان الكثيف. وخلف سيده الذي يمتطي حصاناً أشقر ذا قوائم أسرع، اجتاز حي الميناء، بدكاكينه التي تفوح منها رائحة نقيع الملح، وأقمشته المتيبسة من الرطوبة، والبسكويت الذي يتوجب كسره ضرباً بقبضة اليد، وذلك قبل بلوغ الشارع الكبير المبرقش في هذه الساعة الصباحية بأقمشة «المدارس الهندية» ذات المربعات والألوان الفاقعة التي ترتديها الخادمات الزنجيات وهن عائدات من السوق. ومن عربة المحافظ المثقلة بزخارف من حصى مذهبة، انطلقت تحية مفخمة

Twitter: @alqareah

للسيد لونورمان دي ميزي. ثم ربط المستوطن والعبد مطيّتيهما أمام دكان الحلاق الذي يتلقى «جريدة ليد» من أجل متعة زبائنه المتعلمين.

وأثناء تفرغ السيد لحلاقة ذقنه، تمكن تي نويل من تأمل الرؤوس الأربعة التي تزين رف المدخل، بحرية. كانت تموجات الشعر المستعار تحيط بوجوه ثابتة قبل أن تنتشر في خصلات على السجادة الحمراء. وهذه الرؤوس تبدو حية أيضاً ـ رغم أنها ميتة بسبب ثبات العيون ـ تماماً مثل رأس ناطق كان قد أتى به إلى «الكاب» مشعوذ من جوابي الآفاق قبل بضعة أعوام، وكان يستخدمه من أجل بيع إكسير ضد آلام الأسنان والروماتيزم. ومن قبيل المصادفة المضحكة، كان محل بيع الكروش المجاور يعرض رؤوس عجول مسلوخة مع عذق بقدونس في لسان كل منها، وكانت لها سحنة الشمع نفسها التي يمكن القول إنها متناعسة بين الأذناب الأرجوانية والقوائم المغلفة بالجيلاتين، والأواني المملوءة بالكروش على طريقة مدينة كين الفرنسية. ولم يكن يفصل بين البضاعتين المعروضتين سوى حاجز خشبي فتسلى تي نويل بالتفكير أنهم يقدمون رؤوس سادة بيض إلى جانب رؤوس العجول التي لا لون لها على السماط نفسه. وكما يتمّ تزيين الدواجن بريشها لتقديمها إلى ضيوف الولائم، لا شك أن طباخاً ماهراً ونَهِماً قد غطى تلك الرؤوس بشعور اصطناعية مناسبة. ولا ينقصها إلا حافة من أوراق خس أو فجل تعرض وكأنها زنابق. وفضلاً عن ذلك كان تجاور حقق الصمغ العربي وقوارير ماء الخزامى وعلب مسحوق الأرز مع أواني الكروش والرفوف المملوءة بالكلى يذكر بوليمة فظيعة.

كانت ثمة وفرة من الرؤوس في ذلك الصباح، إذ بالإضافة إلى دكان بيع الكروش، كان صاحب المكتبة المجاورة قد علق

Twitter: @alqareah

آخر الصور الآتية من باريس على سلك حديدي، بواسطة ملاقط غسيل. وفي أربع صور منها على الأقل كان يلوح وجه ملك فرنسا، محاطاً بشموس وسيوف وغار. لكن، كانت ثمة رؤوس أخرى ذات شعور اصطناعية ولا شك أنها لشخصيات هامة في البلاط. كان المقاتلون يتميزون بهيئة الهجوم، والقضاة بطريقة تقطيب الجبين، والظرفاء بابتسامتهم ورجال الأدب والفكر بابتسامتهم وبالريشتين المتقاطعتين فوق أبياتٍ من الشعر لم تعن شيئاً لتي نويل، لأن العبيد لا يجيدون القراءة. وتوجد أيضاً رسوم ملونة حيث تشاهد سهام نارية مشتعلة بمناسبة الاستيلاء على مدينة، وحفلات «باليه» مع أطباء مزودين بحقن ضخمة، ولعبة استغماية في منتزه، شباب فاسقون داعرون يدخلون أيديهم عبر فستان مقور لإحدى الخادمات، أو حيلة العاشق المضطجع على العشب مكتشفاً بمتعة أجزاء حميمة من جسد المرأة التي تتأرجح ببراءة، لكن تي نويل انجذب في هذه اللحظة إلى رسم منقوش على النحاس، هو الأخير في المجموعة، ويختلف عن الرسوم الأخرى من حيث الموضوع والتنفيذ. كان يمثل أميرالاً أو سفيراً فرنسياً لدى استقباله من قِبَل زنجي تحيط به مراوح من ريش وهو جالس على عرش مزين بوجوه قرود وعظايات. كان صاحب المكتبة منشغلاً بإشعال غليون طويل مجبول من تراب عند عتبة محله فتجرأ تي تويل وسأله عن الزنجي الذي في الرسم:

ـ من هو؟

ـ إنه ملك من بلادك.

كان ذلك ما فكر فيه تماماً، إذ أن العبد الشاب تذكر فجأة تلك الحكايات التي كان يرويها ماكندال في طاحونة السكر بينما أكبر خيول مزرعة لونورمان دي ميزي يدير الأسطوانات. لقد تعود

Twitter: @alqareah

الماندنغي(*) على سرد أحداث وقعت في ممالك بوبو وآرادا وناغوس وفونلاس، وكان يتحدث عن هجرات شعوب وحروب تمتد أجيالاً ومعارك خارقة ساعدت فيها الحيوانات البشر. ويعرف تاريخ «أدونهويسو» وملك أنغولا والملك دا مجسد الثعبان ومبدأ العودة الابدية، متزوج من ملكة هي قوس قزح، سيدة المياه والمخاض. لكنه كان يطنب حول الفصل المتعلق بمآثر كانكان موزا، موزا الرهيب، مؤسس إمبراطورية الماندنغ الباسلة التي كانت خيولها مزينة بالفضة وبسروج مطرزة، وكانت تهيمن بصهيلها على صليل السيوف، ناقلة الرعد إلى جلد طبلين معلقين في غواربها(**). وكان هؤلاء الملوك يهجمون برماحهم على رأس محاربيهم، معصومين من الجروح بفضل علوم المحضرين، ولم يكونوا ليسقطوا جرحى إلا إذا انتهكوا حرمة آلهة الصاعقة أو آلهة الحديد المصهور. لقد كانوا ملوكاً أصيلين وليس مثل هؤلاء الملوك الذين يستعيرون شعور غيرهم ويلعبون «البيلبوكت»(***) ولا يقومون بدورهم الإلهي إلا في المشاهد المسرحية التي تعرض في بلاطهم، وهم يستعرضون سيقانهم الخنثوية على إيقاع الريغودون(****). إن هؤلاء الملوك البيض يستمعون كثيراً إلى سمفونيات الكمان وأشعار الأهاجي الرديئة ونمائم عشيقاتهم وشدو عصافيرهم الآلية أكثر من سماعهم لقصف المدافع باتجاه حصن نصف دائري ناتىء بين الجبال. ورغم أن تي نويل أمّي فقد تعلم هذه الحقائق بفضل علم ماكندال العميق. في أفريقيا كان الملك محارباً وصياداً، قاضياً وكاهناً،

(*) نسبة إلى الماندنغ وهم مجموعة أتنية في غرب أفريقيا تشكل مع مجموعات عرقية أخرى إمبراطورية مالي.

(**) غارب الحصان: ما بين عنقه وصهوته.

(***) البيلبوكت: لعبة تتألف من كرة مثقوبة يصلها حبل بعصا دقيقة الرأس على شكل قرن ويطلب من لاعبها أن يشد بالحبل لينطبق ثقب الكرة على رأس العصا.

(****) الريغودون: نوع من الموسيقى الراقصة.

Twitter: @alqareah

وكان منيه الثمين يُحبل مئات البطون التي أنجبت سلالة باسلة من الابطال. أما في فرنسا وفي إسبانيا فإن الملك يرسل جنرالاته للحرب، وهو غير قادر على فض الخصومات، ويستسلم لتعنيف أول راهب قادم: وهو نجيه ومرشده الذي يعترف إليه بخطاياه، أما في مجال الفحولة فإنه يكتفي بإنجاب أمير هزيل، عاجز عن قتل أيل من دون مساعدة الصائدين بالكلاب، ثم إنهم يلقبونه باسم سمكة مسالمة ونزقة: دوفان(*). أما هنالك، بالمقابل، هنالك في أفريقيا، فإنه يوجد أمراء أصلب من الفولاذ، أمراء كالفهود، أمراء يعرفون لغة الأشجار، أمراء يتحكمون في الجهات الأصلية الأربع، سادة السحب والبذار، سادة البرونز والنار.

سمع تي نويل صوت سيده الذي خرج من عند الحلاق مورد الخدين بالمساحيق. صار وجهه الآن يشبه وجوه الشمع الأربعة المعروضة على الرف بابتسامتها البلهاء. وفي الطريق اشترى السيد لونورمان دي ميزي رأس عجل من دكان بيع الكروش وناوله للعبد. ركب تي نويل صهوة الفحل المتلهف للمرعى واخذ يجس تلك الجمجمة البيضاء الباردة مفكراً أن ملمسها شبيه من دون شك بملمس الصلعة التي يخفيها سيده تحت شعره المستعار. وفي الأثناء امتلأ الشارع بالناس. وبعد الزنجيات اللواتي كن يعدن من السوق أقبلت السيدات اللواتي كن يخرجن من قداس الساعة العاشرة. كانت ثمة أكثر من خلاسية، محظية موظف مغتن، تتبعها خادمة غامقة اللون مثلها، تحمل مروحة سعف، في حين كانت شرابة المظلة وكتاب القداس مذهبين. وفي زاوية من الشارع كان أحد العارضين منهمكاً في ترقيص دمى متحركة. وأبعد منه كان بحار يعرض للسيدات قرداً برازيلياً مرتدياً زياً على الطريقة الإسبانية. أما في الحانات فالقوم منهمكون في فتح

(*) كلمة DAUPHIN الفرنسية تعني «دلفين» وهو حيوان لبون من رتبة الحوتيات، كما تعني «ولي العهد».

Twitter: @alqareah

زجاجات نبيذ مبرد في براميل ملأى بالملح وبالرمل المبلل. وكان القس كورنيخو، راعي كنيسة ليموناد، قد وصل لتوه إلى الكنيسة الخورنية، ممتطياً بغلته الشهباء.

خرج السيد لونورمان دي ميزي وعبده من المدينة عبر الدرب المحاذي للبحر، وكانت تسمع طلقات مدفع في اعلى الحصن.

لاحت «الشجاعة» وهي إحدى سفن الأسطول الملكي، في الأفق عائدة من جزيرة السلحفاة، وبدا دخان الصليات مرتسماً إلى جانبها. تذكر السيد الأيام التي كان فيها ضابطاً بائساً وشرع يصفر لحن مزامير المشي. أما تي نويل فقد صاحبَه مدندناً مقطعاً بحرياً، يردده حمالو البراميل في المرفأ كثيراً، وفيه يقولون خراء على ملك انكلترا.

كان متأكداً من الكلمات الأخيرة رغم أن النص ليس بلغة المستعمرات، ولذلك كان يعرفه، ثم إن ملك إنكلترا كان بالنسبة له شيئاً تافهاً مثل ملك فرنسا أو ملك إسبانيا الذي يحكم الجزء الثاني من الجزيرة، حيث النساء كما أكد له ماكندال، يطلين خدودهن بدم الثور ويطمرن أجنة الاطفال الذين يولدون بعد الابن البكر في دير مملوءة سراديبه بهياكل عظمية مطرودة من السماء الحقيقية التي لا رغبة فيها ولا مكان لموتى يجهلون الآلهة الحقيقية.

2

البتر

جلس تي نويل على دلو مقلوب بينما كان الحصان الهرم يدير الطاحونة بسرعة منتظمة بفعل التعود، وكان ماكندال يتناول حزم القصب ويدفع بأطرافها بين الأسطوانات الحديدية. كان الماندنغي يشع بسحر غريب على تي نويل، بعينيه الدائمتي

Twitter: @alqareah

الاحتقان وجذعه القوي وقامته الرشيقة. ويقال بأن نبرة صوته الخفيضة والمكتومة قليلاً تسمح له بالحصول على كل شيء من الزنجيات، وأن فن الحكاية الذي يجيده (كان يمثل بالإيماء أدوار شخصياته ويمط شفتيه بطريقة مريعة) يفرض الصمت على الرجال، خصوصاً عندما يذكر السفر الذي قام به سجيناً، منذ أعوام، قبل بيعه إلى نخاسي سيراليون. وأدرك الفتى وهو يصغي إليه، بأن الكاب الفرنسي بأجراسه ومبانيه المقدودة من صخر، ومنازله النورمندية المزخرفة بشرفات طويلة مغطاة، لا تعد شيئاً، مقارنة بمدن غينيا. هنالك، توجد قباب من تربة حمراء منتصبة فوق حصون كبيرة مسننة ذات فتحات، أسواق ذائعة الصيت فيما وراء تخوم الصحراء، فيما وراء الشعوب التي لا أرض لها. في تلك المدن يوجد صناع ماهرون في إذابة المعادن، وصنع سيوف لاذعة كالسكاكين، لا تزن أكثر من ريشة في يد المحارب. انهار غزيرة، تولد من السماء، وتلحس قدمي الإنسان ولم تكن ثمة حاجة لجلب الملح من بلاد الملح. وفي بيوت كبيرة يُحفظ القمح والسمسم والذرة البيضاء، وكان يوجد تبادل بين الممالك يشمل زيت الزيتون وخمور الأندلس. وتحت سقوف من سعف تهجع الطبول الضخمة، الطبول ـ الأم، بأقدام مطلية بالاحمر ووجوه بشرية. تخضع الأمطار لتعزيم الحكماء وأثناء احتفالات الختان، عندما يرقص المراهقون، وأفخاذهم مخضبة بالدماء، تدق حجارة رنانة فتبعث موسيقى تشبه شلالات كبيرة متعقّلة. في مدينة «فيدا» المقدسة تتم عبادة الصل، وهو الرمز الصوفي للدوران الأبدي، وكذلك الآلهة التي تتحكم في العالم النباتي: وهذه الأخيرة كانت تظهر غالباً، مبتلة، لامعة، في منابت الأسل التي تخنق الضجيج المتصاعد من ضفاف البحيرات المالحة.

كبا الحصان منهكاً على ركبتيه.

Twitter: @alqareah

تعالى عويل ممزق، طويل، إلى حد أنه حلّق فوق المساكن المجاورة، مهيجاً أبراج الحمام. لقد التقطت الأسطوانات التي دارت فجأة، بسرعة غير متوقعة، يد ماكندال اليسرى وسحبتها مع القصب، خاطفة ذراعه حتى الكتف. انتشرت في حوض عصير قصب السكر بقعة دامية. تناول تي نويل سكيناً وقطع الحزام الذي يربط الحصان بصاري الطاحونة. هرع عبيد المدبغة إلى الطاحونة، خلف السيد، وجاء عمال تجفيف اللحم والكاكاو أيضاً. ماكندال يسحب الآن ذراعه المهروسة، جاعلاً الأسطوانات تدور في الاتجاه المعاكس، حاول بيده اليمنى ان يحرك مرفقه ومعصمه، فما أطاعاه، نظراته غبية ولا يبدو عليه أنه فهم ما حصل له. تم لف حبال تحت إبطه لوقف النزيف. أمر السيد بإحضار المسن لشحذ الخنجر الذي سيستخدم في البتر.

3

ما وجدته اليد

بعد أن صار ماكندال غير نافع لأعمال أخرى. أوكلت إليه رعاية المواشي. فكان يُخرج الأبقار من حظائرها قبل الفجر ويقودها إلى الجبل الذي تنمو على سفحه أعشاب كثيفة تظل مغطاة بالندى حتى ساعة متقدمة من الصباح. ومن فرط تأمله لانتشار الأبقار البطيء وهي ترعى النفل الذي يبلغ بطونها، اثار فضوله وجود بعض النباتات التي تأنفها الأبقار دائماً. كان مضطجعاً في ظل شجرة خروب، متكئاً على مرفق ذراعه السليمة وهو يبحث بيده الوحيدة بين الأعشاب المعروفة عما أهمله سابقاً من نباتات الارض. فاكتشف مندهشاً الحياة السرية لأنواع متفردة تميل إلى التستر والغموض والتخفي، صديقة لعالم ذوات الدروع الصغير الذي يتلافى دروب النمال. قطفت يده بشتات

Twitter: @alqareah

مجهولة، زهور كبّر، فلفلاً صغير الحجم، نبتات معترشة تمد شباكها بين الصخور، نبتات منعزلة ذات أوراق وبرية تنتح إفرازاتها ليلاً، جنبات حساسة تتقلص بمجرد انطلاق صوت الإنسان، عليبات تتفرقع في منتصف النهار بصوت جاف كما أظافر تسحق برغوثة، معترشات زاحفة، تتشابك بعيداً عن أشعة الشمس، في ركام ذي لعاب، ثمة نبتة تحدث إلتهابات وأخرى تورم رأس من يستلقي تحت ظلها، لكن ماكندال يهتم الآن بالفطريات أكثر. وهي فطريات لها رائحة النخر، وقوارير الدواء، والدهاليز الغامضة والمرض، تنمو لها آذان. فطر الكبد، نمو لحمي خشن وناضج، يفتح مظلاته المخططة في مغارات معتمة، حيث تقيم ضفادع تنظر أو تنام وعيونها ثابتة. سحق الماندنغ لحم حبة فطر بين أصابعه ناقلاً بعد ذلك إلى منخريه رائحة سم. أدنى يديه من منخري بقرة فأخذت تشيح برأسها وعيناها مذعورتان وهي تتنفس بعمق. ذهب ماكندال باحثاً عن فطور أخرى من الصنف ذاته، واحتفظ بها في صرة من جلد كان يعلقها في رقبته.

كان تي نويل يتعلل كثيراً بغسل الخيول ويبتعد عن مسكن لونورمان دي ميزي، عدة ساعات، لمقابلة الأكتع. فيتوجهان إلى حد الوادي، هناك حيث تغدو الأرض وعرة، وسفح الجبال محفوراً بمغارات عميقة. توقفا عند عجوز تعيش بمفردها رغم أنها استقبلت أناساً كثيرين جاؤوا من بعيد. كانت عدة سيوف معلقة على الحائط، بين أعلام حمراء ذات مقابض ثقيلة، وحدوات خيول وشظايا نيازك فضائية وملاعق صدئة معلقة بسلك حديدي، وموضوعة على شكل صلبان لإبعاد البارون يوم السبت، بارون الشوك، بارون الصليب وسادة الجبّانة الآخرين. قدم ماكندال إلى ماما الحق، الأوراق والأعشاب والفطور. تفحصتها بعناية،

Twitter: @alqareah

ضغطت على بعضها وشمت بعضها، ورمت ما تبقى. يتحدث الناس أحياناً عن حيوانات متميزة، متحدرة من أصل بشري، وعن بشر تكسبهم صلوات معينة سلطة ذئبية(*). ومن المعروف أن نساء اغتصبتّهنّ السنوريات فاستبدلن الكلام ليلاً بالزئير. ذات مرة سكتت ماما الحق بطريقة غريبة في عز حكايتها. استجابت لإيعاز ملغز، ركضت إلى المطبخ، غطست ذراعيها في قدر مملوءة بزيت يغلي. لاحظ تي نويل أن وجهها يعكس لا مبالاة باردة وأغرب من ذلك أن ذراعيها بعد أن سحبتهما من الزيت لم تبد عليهما نفاطات أو آثار حروق رغم نشيش القلي الفظيع الذي سمع. ونظراً لكون ماكندال تقبل الأمر بهدوء كامل، فقد أجهد تي نويل نفسه كي يخفي دهشته. تواصلت المحاورة بلطف بين الماندنغ والساحرة، تخللتها فترات صمت طويلة كانا أثناءها يحدقان في البعيد.

أمسكا ذات يوم بكلب ينتمي إلى رهط الصيد التابع للونورمان دي ميزي، وبينما كان تي نويل منفرج الساقين، يمسك برأس الكلب من أذنيه، حك ماكندال بوزه بحجر صبغته عصارة الفطر بلون أصفر فاتح. ارتخت عضلات الكلب. مرت في جسمه رعشات قوية، ثم سقط على ظهره، متصلب القوائم، عاري الأسنان. في ذلك المساء، وأثناء العودة إلى المسكن، توقف ماكندال طويلاً ليتأمل الطواحين، ومجففات الكاكاو والبن، والمنيلة(**)، ومسابك الحديد والصهاريج ومداخن تجفيف اللحم.

ـ حان الوقت، قال.

وفي الغداة نودي سدىً. نظم السيد إحاشة صيد كاملة من

(*) جنون يجعل المريض يتخيل أنه ذئب.
(**) مكان صنع النيلة.

Twitter: @alqareah

أجل تلقين درس للزنوج. لا قيمة لعبد بذراع واحدة. ثم إن أي ماندنغ هو زنجي آبق بالقوة. والقول «ماندنغ» يعني القول: فاسد، متمرد، شيطان. لذلك كان زنوج مملكتهم منخفضي الثمن في سوق النخاسة. لا يفكرون إلا في الهروب إلى الغابة. وفضلاً عن ذلك فإن كثرة الملكيات المتجاورة لن تسمح للأكتع بالهروب بعيداً. عندما يُسترَد سوف يُنَكل به أمام جميع الخدم ليكون عبرة لهم. لكن الأكتع هو أكتع وليس أكثر، ومن الغباء فقدان كلبين من سلالة جيدة في حالة تعرض ماكندال لهما بخنجره.

4

النداء

اغتم تي نويل كثيراً لاختفاء ماكندال، ولو قيض له أن يأبق إذن لقبل بكل سرور أن يخدم الماندنغ. فكر بأنه لا يقيم له وزناً كبيراً في ذهنه حتى يطلعه على مشاريعه، وطيلة ليالي الأرق، عندما كانت تعذبه هذه الفكرة، كان يستيقظ من المذود الذي ينام فيه ويمر بيده وهو يبكي حول عنق الحصان النورمندي ثم يدفن رأسه في شعر العرف الدافىء الذي يفوح برائحة الحصان بعد غسله. لقد تلاشى مع رحيل ماكندال ذلك العالم المذكور في حكاياته، تلاشى معه كانكان موزا، أدونهويسو، وملوك قوس قزح الأصليون في «فيداه». صار تي نويل المحروم حالياً من ملح الحياة يسأم الأعياد: يعيش مع حيواناته ويعتني باصطياد القراد من آذانها وعِجانها، هكذا مر فصل الأمطار بكامله.

ذات يوم، عندما عادت الجداول إلى جريانها، التقى تي نويل عجوز الجبل في جوار الحظيرة. كانت آتية له برسالة من ماكندال. ومع بزوغ الفجر دخل الفتى مغارة ضيقة المدخل،

Twitter: @alqareah

ممتلئة برواسب كلسية متحجرة تتدلى بالغة حفرة أكثر عمقاً مفروشة بخفافيش متدلية من قوائمها. كانت الأرض مغطاة بطبقة كثيفة من سماد ذرق الطيور وأدوات من حجر وحسك أسماك متحجرة، ولاحظ تي نويل أن عدة جرار من طين تحتل الوسط، وتعبق برائحة حادة وثقيلة في ذلك الظل الرطب. كانت ثمة جلود عظايات تتكوم على أوراق، حجر كبير مسطح وعدة أحجار مستديرة وناعمة، لا شك أنها استخدمت حديثاً في عمليات مرس. وعلى جذع تم تسطيحه بخنجر، يوجد كتاب محاسبة سرق من أمين صندوق المزرعة، وعلى صفحاته تصطف علامات خشنة مخطوطة بالفحم. تذكر تي نويل متاجر الأعشاب في الكاب، بأجرانها الكبيرة، ووصفاتها المكتوبة فوق مقارىء الترتيل، وأوعية البوقال الزجاجية المملوءة بجوز القيء والحلتيت(*)، وباقات جذور الخطمى(**) الصغيرة لمعالجة اللثة. لاتنقص المكان سوى عقارب في الكحول، وورود ممروسة في الزيت وقمقم العلق.

ازداد ماكندال نحولاً، صارت حركات عضلاته تلوح فوق العظام مباشرة، لتنحت جذعه بنتوءات بارزة. لكن وجهه، الذي يعكس ألواناً زيتونية تحت نور المصباح، كان يعبّر عن فرح هادىء. كان جبينه موشحاً بمنديل أرجواني مزين بكريات زجاجية. والشيء الذي أذهل تي نويل أكثر هو اكتشافه لعمل طويل ودؤوب قام به الماندنغ منذ ليلة فراره. كأنما جاب مساكن السهل مسكناً مسكناً، واتصل مباشرة بمن يعملون فيها. فهو يعرف مثلاً أنه في منيلة «دوندون» يمكنه التعويل على أولين البستاني ورومان طباخة الأكواخ والأعور جان بيارو، أما

(*) صمغ كريه الرائحة، مر المذاق، يستعمل لتسكين التشنجات.
(**) جنس نبات من فصيلة الخبازيات.

Twitter: @alqareah

بخصوص مسكن لو نورمان دي ميزي فقد بعث رسائل إلى الأخوة بونغي، والكونغوليين الجدد، وإلى فولا ذي الركبتين المتماستين ومارينيت الخلاسية التي نامت سابقاً في فراش السيد قبل إعادتها إلى الغسيل لدى وصول آنسة ما، تدعى مدموازيل دي لامارتينيير، تزوجها بوكالة في دير في الهافر لدى رحيله إلى المستعمرة.

لقد اتصل أيضاً بالأنغوليين الأثنين خلف جبل «قلنسوة المطران» واللذين يحتفظ ردفاهما المخططان بآثار النار الحمراء التي كُويا بها عقاباً على سرقة شراب ماء الحياة، وسجل ماكندال بحروف لا يستطيع سواه فك رموزها، اسم بوكور دي ميلو وكذلك أسماء سائقي دواب الركوب، الصالحين لاجتياز سلسلة الجبال والاتصال بقوم الآرتيبونيت.

أدرك تي نويل في ذلك اليوم ما ينتظر منه الأكتع. ويوم الاحد ذاته، لدى عودته من القداس، علم السيد بأن أفضل بقرتين حَلُوبيْن في المزرعة ـ وهما مجلوبتان من روان وذيلاهما أبيضان ـ كانتا تحتضران فوق روثهما باصقتين مرتيهما. وأوضح له تي نويل بأن الحيوانات المستجلبة من بلدان بعيدة تخطىء أحياناً في اختيار غذائها وتحسب بعض الفسائل التي تسمم دمها عشباً لذيذاً.

5

من الأعماق

انتشر السم في سهل الشمال كنشار عبر الأسطبلات والحظائر. ولم يكن أحد يعرف كيف كان ينتشر بين الأعشاب والبرسيم، كيف كان يُدس في حزمات الكلأ، كيف كان يبلغ

Twitter: @alqareah

المعالف. والواقع، هو أن الأبقار والثيران والعجول والخيول والنعاج صارت تنفق بالمئات مغطية المنطقة كلها بنتانة الجيف. كانت تُحرق في الغسق أكوام الحطب فتعبق بدخان خفيض ودبق ثم تتلاشى مخلفة أكواماً من الجماجم السوداء والأجزاء المتفحمة والحوافر المحمرة من النار. وبحث علماء الأعشاب الأكثر خبرة في الكاب عن الورقة، الراتنج، النسغ التي قد تكون نقلت الكارثة، لكن دون طائل. ظلت الحيوانات تنهار دائماً، منتفخة البطون وسط طنين هائل للذباب الأخضر، كانت السطوح مغطاة بطيور سوداء، ذات رؤوس منتوفة الريش، تنتظر الوقت المناسب لتحط وتنقض على الجلود المتصلبة، لتفتح بمناقيرها منفذاً إلى عفونة أخرى.

وسرعان ما انتشر الخبر بأن السم قد نفذ إلى البيوت. ذات مساء بعد أن تناول سيد مزرعة «الديك ـ يصيح» قطعة من فطيرة محشوة، انهار بغتة، بلا ألم سابق، ساحباً معه ساعة الحائط التي كان يعبئها، وقبل أن يبلغ الخبر مزارع أخرى كان العديد من الملاكين قد صعقوا بالسم، متأهبين، وكأنهم مقرفصون ليثبوا جيداً، في أكواب المناضد، في قدور الحساء، في قوارير الدواء، في الخبز، النبيذ، الفواكه، الملح. كان يسمع في كل الأوقات صوت المطارق وهي تدق مسامير النعوش. وفي كل زاوية شارع تشاهد عملية دفن. وفي كنائس الكاب لم تعد ترتل سوى صلاة الموتى وكانت «مسحة المرضى» تصل دائماً، متأخرة جداً، ترافقها دقات بعيدة تعلن عن وفيات أخرى. توجب على الكهنة اختصار صلواتهم ليعطوا كل العائلات حقها أثناء الحداد. وفي كل مكان من السهل كان يُسمع المرد الجنائزي نفسه، نشيد الرعب الكبير. ذلك أن الرعب كان ينحل الوجوه وينشف الحلوق. وفي ظل صلبان الفضة التي تغدو وتروح عبر الدروب، تابع السم الأخضر، السم الأصفر أو السم الذي لم يكن ليلون الماء، تابع زحفه، فكان

Twitter: @alqareah

ينزل عبر مداخن المطابخ، ويندس عبر شقوق الأبواب الموصدة، مثل نبتة معترشة تبحث عن الظل لتجعل من الأجساد ظلالاً. وتواصلت في كل ساعة على إيقاع «الشكوى» و«من الأعماق»(*) تسبيحة مساعدي المرتلين المشؤومة.

تملك الغيظ المستوطنين وأسكرتهم الخمر لأنهم ما عادوا يتجرأون على شرب مياه الآبار، فكانوا يجلدون عبيدهم ويعذبونهم بحثاً عن توضيح، لكن السم واصل إبادته للعائلات، فكان يقضي على الحيوانات وعلى الناس من دون أن تتمكن الصلوات الجماعية ونصائح الأطباء والنذر المقدمة للقديسين، ولا الوصفات غير الناجعة من بحار بروتاني مناجي أرواح ومجبّر أعضاء، من توقيف مسيرة الموت الغامضة. وبعجلة لاإرادية من أجل ملء آخر حفرة شاغرة في المقبرة ماتت السيدة لو نورمان دي ميزي يوم أحد العنصرة، بعد لحظات من قضمها برتقالة جميلة بوجه خاص أدناها غصن ملاطف من متناول يدها. أعلنت الأحكام العرفية في السهل. فكان كل شخص يفاجأ في الحقول أو في جوار البيوت بعد غروب الشمس، يردى قتيلاً ببنادق الفتيل دون إنذار. انتشر جنود ثكنة الكاب في الدروب، كتهديد سخيف بالموت ضد عدو غير قابل للإمساك به، لكن السم صار يبلغ الأفواه بالطرق الأقل توقعاً. ذات يوم وجده أفراد عائلة دي بيرينيي الثمانية في برميل عصير تفاح كانوا قد نقلوه بأيديهم من قعر سفينة رست قبل بضعة أيام. أمست الجيف سيدة المنطقة بلا منازع.

ذات مساء بعد أن تم تهديده بوضع عبوة ديناميت في مؤخرته، انتهى «الفولا» بالاعتراف: إن ماكندال الأكتع، الذي

(*) بداية مزمور التوبة الذي يتلى في صلاة الموتى.

Twitter: @alqareah

صار تابعاً لطقوس رادا، واستحوذت عليه عدة آلهة قاهرة، فوهبته قدرات خارقة، هو سيد السم. ولأنه وهب سلطة مفوضي «الضفة الأخرى» فقد أعلن حرب الإبادة المقدسة. كان هو المصطفى المكلف بالقضاء على البيض وإنشاء إمبراطورية كبرى للسود الأحرار في سان ـ دومينغ. التحق به ألوف العبيد. لن يتمكن أحد من توقيف مسيرة السم. هذا الاعتراف أحدث في المزرعة عاصفة من ضرب السياط. وما أن مزق البارود المشتعل من الغيظ أحشاء الزنجي الثرثار حتى أرسل تبليغ إلى الكاب. وفي المساء نفسه تمت تعبئة كل الرجال الجاهزين لمطاردة ماكندال. أما السهل المتعفن بالجيف وبالحوافر التي لم تحترق جيداً وبالحشرات فقد امتلأ بنباح الشتائم.

6

التحولات

طيلة أسابيع فتش جنود حامية «الكاب» والدوريات التي شكلها المستوطنون من المحاسبين ورؤساء العمال، المنطقة بكاملها: غابة غابة، وادياً وادياً، ومأسلة مأسلة، من دون أن يجدوا أثراً لماكندال. أما السم الذي كُشف مصدره فقد كف عن الهجوم وعاد إلى الجرار التي لا شك أن الأكتع قد دفنها في مكان ما، متحولاً إلى زبد في ليل الأرض الرحب، الذي صار الآن ليلاً أيضاً لعدة حيوات أخرى. كان الكلاب والرجال يعودون من الغابة مع الغسق، ناضحين من شدة الإنهاك والغيظ بكل مسامهم. أما الآن وقد عاد الموت إلى إيقاعه الطبيعي، الذي لا يزداد إلا في يناير بسبب تغير الطقس، أو بسبب الحمى غير العادية التي تحدثها الأمطار، فإن المستوطنين انكبوا على الكحول وعلى اللعب، شاعرين بالذل من حياتهم المشتركة التي فرضها التجنيد

Twitter: @alqareah

غير المنظم. وما بين الأغاني الفاحشة والغش في اللعب وجس أثداء الزنجيات اللواتي يأتين بأكواب نظيفة، كانوا يذكرون مآثر الاسلاف الذين ساهموا في نهب قرطاجنة دي إنديا أو استولوا على كنز التاج الإسباني، عندما تمكن «بيت هاين» ذو الساق الخشبية من النجاح في المهمة الهائلة التي طالما حلم بها القراصنة طيلة ما يقارب القرنين في مياه كوبا. كانوا حول الموائد المتعفنة، وفي صخب حجارة النرد المتواصل، يشربون في ذكرى إسنامبوك وبرتراند وجيرون، ودي روسيت، والرجال الحازمين الذين أسسوا المستعمرة متحملين كل التبعات، مطبقين القانون برجولة دون أن تخجلهم المراسم المطبوعة في باريس أو التحذيرات الهشة في «القانون الاسود». أما الكلاب فكانت نائمة تحت المقاعد يرهقها حمل الاطواق الحادة.

تقلص عدد الإغارات ضد ماكندال وصارت متراخية تتخللها قيلولة وقليل من الطعام تحت الأشجار، ومرت عدة شهور دون أن يُعلم شيء عنه. فكر البعض بأنه قد يكون التجأ إلى وسط البلاد، فوق المرتفعات الضبابية، هناك حيث يرقص الزنوج رقصة الفندنغو على أصوات إيقاع الصنوج. وأكد آخرون بأنه انتقل على متن سفينة ليواصل أعماله في منطقة جكمال، حيث الكثير من الناس الموتى الأحياء يمكنهم أن يعملوا في الأرض ما داموا لايتمكنون من أكل الملح. أما العبيد فكانوا في الأثناء مبتهجين بوقاحة. ولم يسبق للمكلفين بالمصاحبة الإيقاعية لزرع الذرة أو حصد القصب أن قرعوا طبولهم بذلك القدر من الحماس. وأثناء الليل يتبادل الزنوج في أكواخهم بفرح الأخبار الخارقة: لقد تدفأت إغوانة(*) خضراء، تحت الشمس، فوق سطح مجففة التبغ،

(*) عظاية أمريكية عاشبة.

Twitter: @alqareah

شاهد أحدهم فراشة ليلية تطير في منتصف النهار، اجتاز كلب ضخم ذو شعر منتفش البيت بسرعة فائقة حاملاً معه فخذ يحمور(*)، تفلت بجعة ـ بعيداً عن البحر! ـ نافضة جناحيها فوق الكرمة المعرّشة في الفناء الخلفي.

كان الجميع يدركون بأن الاغوانة الخضراء والفراشة الليلية، والكلب المجهول، والبجعة الغريبة ليست كلها سوى تنكر، إذ أن ماكندال الذي وُهب القدرة على التحول إلى حيوان ذي حوافر، أو إلى طائر أو سمكة أو حشرة، كان يقوم بزيارات مطردة إلى بيوت السهل لمراقبة أتباعه والتأكد إن كانوا ما زالوا يثقون بعودته. ومن تحول إلى تحول، صار الأكتع في كل مكان، لقد استعاد كماله الجسدي في أشكال حيوانات. فهو ذات يوم يكتسب جناحين وذات يوم آخر يكتسب غلاصم، فيركض ويزحف. لقد صار سيداً لمجاري الأنهار الجوفية ومغارات الساحل وذرى الأشجار وهو الآن يحكم الجزيرة بكاملها. لا حدود لسطوته. يمكنه أن يتجسد في مهرة مثلما بإمكانه أن يستريح في ظل صهريج أو يحط على أغصان الأكاسيا الرقيقة أو ينفذ عبر ثقب قفل. لم تكن الكلاب تنبح خلفه، كان يغير شكله كما يريد، ومن أعماله أن زنجية انجبت مولوداً له رأس خنزير، وفي الليل كان كثيراً ما يلوح في الدروب في ثوب تيس أسود يتقد الجمر على قرنيه، سوف يأتي اليوم الذي يعطي فيه إشارة الهيجان فيأتي السادة الذين من هناك وعلى رأسهم «دام بالله» سيد الدروب، وأوغون فراي، بالرعد والبرق لإثارة الاعصار الذي سوف يكمل عمل الإنسان. وفي تلك اللحظة المشهودة، قال تي نويل، سوف يسيل دم البيض حتى يبلغ الجداول، حيث تنتشي به «اللواس» الجذلى منحنية، إلى أن تملأ رئاتها منه.

(*) حيوان مجتر لبون من فصيلة الأيائل.

Twitter: @alqareah

دام الانتظار القَلِق أربعة أعوام دون أن تكل الآذان الصاغية في كل لحظة وهي تنتظر أصوات الأبواق التي ينبغي أن تدوي في الجبال لتعلن للجميع أن ماكندال ختم دورة تحولاته وسوف يعود لينتصب، صلباً وعصبياً وخصيتاه كحجرين، على ساقيه البشريتين.

7

الثوب البشري

بعد أن أعاد السيد لونورمان دي ميزي الغسالة مارينيت إلى فراشه لفترة محددة، تزوج من جديد أرملة غنية، عرجاء وتقية، بتوسط خوري ليموناد. ولهذا السبب ما أن بدأت تباشير ريح الشمال تهب في شهر ديسمبر حتى انهمك خدم البيت تحت إمرة سيدة البيت، في وضع دمى قروية حول مغارة من خرق، ماتزال تفوح منها رائحة الصمغ الفاتر، لإضاءتها في عيد الميلاد، تحت إفريز السقيفة. قام توسان نجار الأبنوس بنقش ملوك مجوس من خشب، وكان حجمهم كبيراً بحيث كان من الصعب الإنتهاء من وضعهم، وخصوصاً بسبب قرنيتي بالتازار الفظيعتين، والمطلتين بطريقة أخّاذة بوجه خاص، فكانتا تبدوان وكأنهما تنبجسان من ليل الأبنوس مرسلتين اتهامات غريق مفزعة. وكان تي نويل والعبيد الآخرون يحضرون عملية تهيئة المذود، مفكرين في اقتراب أيام هدايا رأس السنة وقداس منتصف الليل، متذكرين أن الزيارات والولائم التي يقيمها السادة تبعث نوعاً من التساهل في النظام، بحيث لا يغدو من الصعب الحصول على أذن خنزير من المطبخ، واحتساء جرعة خمر من البرميل أو التسلل ليلاً إلى كوخ النساء الأنغوليات اللواتي تم شراؤهن منذ قليل، وينوي السيد تزويجهن على الطريقة المسيحية بعد الأعياد، لكن تي نويل في

Twitter: @alqareah

هذه المرة يعلم بأنه لن يكون حاضراً عندما تضاء الشموع ويلمع ذهب المغارة. كان يفكر في الإفلات ساعة الاحتفال الذي سيقيمه عبيد مزرعة دوفريني، والذين سيسمح لكل واحد منهم بدورق كامل من العَرَق الإسباني، احتفالاً بولادة أول ذكر في بيت السيد.

اقرعوا، اقرعوا الكونغوا، اقرعوا

اقرعوا، اقرعوا الكونغوا، اقرعوا

ارقصن يا بنات بقوة كونغو يا... يا... رو،

منذ أكثر من ساعتين والطبول تدق تحت ضوء المشاعل، والنساء يكررن، بإيقاع الأكتاف، حركة دائمة للغسالات، وفجأة ارتجفت أصوات المغنين برعدة. وخلف الطبل الأم انتصب الشخص البشري لماكندال. ماكندال إنساناً. الأكتع. العائد. المتجلي. لا أحد حياه لكن نظره التقى كل الأنظار. مرت أقداح العَرَق من يد إلى أخرى، نحو يده الوحيدة الفارغة. كان تي نويل يراه لأول مرة منذ تحولاته. كأنما يبدو عليه شيء من آثار إقامته في أماكن غريبة، شيء ما من أثوابه المتعاقبة: ثوب الحراشف، ثوب الوبر، ثوب الصوف، كان نقنه يمتد لينتهي ببوز سنوري، ولا شك أن عينيه ارتفعتا قليلاً نحو الصدغين، مثل عيون بعض الطيور التي سبق وأن تجسد فيها. مرت النساء أمامه مراراً وهن يتمايلن على إيقاع الرقصة. ولكن، كان يوجد العديد من التساؤلات في الهواء بحيث انطلقت كل الأصوات فجأة وبلا اتفاق مسبق، منشدة أغنية يا نفالو الاحتفالية التي هيمنت على دق الطبول، بعد أربع سنوات من الانتظار جاءت الاغنية لترسم لوحة من البؤس الدائم:

يا نفالو أنا بابا

ما أكلت إلا بامبو

Twitter: @alqareah

يا نفالو، بابا، يا نفالو أنا،

هل عليَّ انزف المرزل

يا نفالو، انا؟

هل يتوجب علي أن انظف المرجل دائماً؟ هل يتوجب علي أن آكل ضرب الخيزران دائماً؟ كانت الاسئلة تتسارع وكأنها أجزاء من الأحشاء وتتخذ في لحن جماعي نبرة لزمجرة الشعوب المرّة وهي تساق إلى المنفى لتبني أضرحة وأبراجاً أو أسواراً لا تنتهي. آه! يا أبي، يا أبي، ما أطول الطريق! آه! يا أبي، ما أطول العذاب! ومن شدة العويل نسي تي نويل أن للبيض أيضاً آذاناً. وفي اللحظة نفسها تمت تهيئة الخناجر والبنادق والمسدسات التي كانت معلقة في الصالونات. وتوقعاً لما قد يحدث، جمع احتياطي من السكاكين والسيوف والهراوات وتركت في حراسة النساء اللواتي بدأن يصلين ويبتهلن من أجل القبض على الماندنغ.

8

الطيران الكبير

ذات يوم اثنين من شهر يناير، قبل الفجر بقليل، بدأ مستخدمو مزارع سهل الشمال يدخلون مدينة الكاب. وكان العبيد الذين يسوقهم أسيادهم وقادتهم على صهوات الخيول ويرافقهم حراس يرتدون زي الميدان، يشكلون بقعة سوداء كبيرة في الساحة الرحبة حيث الطبول العسكرية تضاعف من إيقاعاتها الاحتفالية. كان العديد من الجنود يكدسون حزمات حطب وعيدان تحت عمود من خشب صلب بينما كان آخرون يضرمون ناراً في موقد. وفي فناء الكاتدرائية، قرب الحاكم والقضاة والموظفين الملكيين، كانت توجد السلطات المجمعية الإكليركية، وأفرادها

Twitter: @alqareah

جالسون على مقاعد مريحة عالية وحمراء اللون، في ظل ملاءة جنائزية مشدودة بحبال فوق عصي طويلة. ومثل زهور ذات ألوان مرحة يحركها النسيم في فتحة نافذة، كانت تشاهد في الشرفات مظلات خفيفة متحركة. وكانت النساء ذوات القفازات التي بلا أصابع والمراوح يتحدثن بأصوات عالية ونبرات يشوبها التأثر بلذة، وكأنهن في شرفات مسرح رحب. أما اللواتي تشرف نوافذهن على الساحة فقد هيأن شراب الليمون واللوز لضيوفهن، وفي الأسفل كان الزنوج متراصين، ينضحون عرقاً، وهم ينتظرون عرضاً ينظم من أجلهم، حفلة للزنوج صرفوا من أجل أبهتها مصاريف باهظة. إذ في هذه المرة سوف يلقنون درساً بالنار وليس بالحديد والإشراقات التي ينبغي تذكرها كلفت غالياً.

فجأة انطبقت كل المراوح دفعة واحدة، وخيم صمت عارم خلف الطبول العسكرية. تقدم ماكندال نحو مركز الساحة يرتدي سروالاً قصيراً مخططاً، وهو موثق بالحبال وبالعقد، ومثخن بجروح حديثة. سأل السادة وجوه عبيدهم بالنظرات، لكن الزنوج كانوا يبدون لا مبالاة مهينة، ماذا يفهم البيض في شؤون السود؟ في دورات تحولاته تغلغل ماكندال في عالم الحشرات السري، معوضاً خسارة ذراعه بامتلاك قوائم متعددة، أربعة أجنحة، أو زبانى(*) طويلة. لقد تحول إلى ذبابة، وأم أربع وأربعين، وأرضة، ورتيلاء، ودعسوق، بل وتحول إلى دودة حباحب ذات أنوار خضراء لماعة، وفي اللحظة الحاسمة سوف لا تجد قيود الماندنغ جسداً تشده، فترسم شبحاً آخر لرجل فضائي قبل أن تسقط تحت العمود. وسوف يذهب ماكندال، وقد استحال بعوضة، ليحط على قبعة قائد الجنود، ويسخر من إرتباك البيض، هذا ما

(*) قرن الاستشعار عند الحشرة.

Twitter: @alqareah

يجهله الأسياد. ورغم ذلك فقد بذروا أموالاً كثيرة لتنظيم هذا العرض غير المجدي، والذي سوف يكشف عن عجزهم التام، أمام رجل هو مسيح «اللواس» الكبار.

كان ماكندال الآن مسند الظهر إلى عمود التعذيب، تناول الجلاد جمرة بواسطة ملقط صغير. أما الحاكم فقد كرر حركة درسها البارحة أمام مرآته، فجرد سيفه من غمده وأمر بتنفيذ الحكم. بدأت ألسنة النار تتصاعد نحو الأكتع، لاحسة رجليه. في هذه اللحظة، حرك ماكندال جدعة ذراعه التي لم تُربط، بحركة تهديد لم تكن أقل فظاعة، وأخذ يصيح من التعاويذ المجهولة التي بدأت تهب في جسده بعنف. سقطت قيوده، تمدد جسده في الهواء ثم طار فوق الرؤوس قبل أن يضيع في مد الزنوج الاسود. وملأت الساحة صيحة واحدة:

ـ لقد نجا ماكندال!

ثم حدثت البلبلة والصخب، اندفع الحراس ضرباً بأخامص البنادق ضد الزنوج الصارخين، الذين بدأوا يتسلقون الشرفات. كان ثمة ضجيج، صيحات، زحام، إلى حد أن القليل منهم فقط شاهدوا أن ماكندال الذي أمسك به عشرة جنود قد ألقي في النار ورأسه أولاً، وأن شعلة نار تضخمت باشتعال شعره، خنقت آخر صيحاته. عندما هدأ الزنوج، كان الحطب مايزال يشتعل مثل غيره من الحطب اليابس، وكان النسيم البحري يرسل دخاناً كثيفاً نحو الشرفات حيث أكثر من سيدة أغمي عليها وأخذت تستعيد وعيها. ولم يعد ثمة شيء للمشاهدة.

في ذلك المساء عاد العبيد إلى المزارع ضاحكين طيلة الطريق. لقد وفى ماكندال بوعده، وسوف يمكث في مملكة هذا العالم، وها إن البيض قد خدعوا مرة أخرى من قِبَل «القدرات

Twitter: @alqareah

الخارقة للضفة الأخرى». وفي حين كان السيد لو نورمان دي ميزي، معتمراً قلنسوة النوم، يعلق مع زوجته الورعة على عدم حساسية الزنوج أمام عذاب واحد منهم، مستنتجاً من ذلك عدة ملاحظات فلسفية تتعلق بعدم مساواة الأعراق البشرية، وهو يفكر بتسجيلها في دراسة مثقلة باستشهادات لاتينية، في تلك الأثناء كان تي نويل يحبّل إحدى خادمات المطبخ بتوأمين مضاجعاً إياها ثلاث مرات في مذود داخل الإسطبل.

Twitter: @alqareah

الجزء الثاني

... قلت لها بأنها سوف تصير ملكة هناك، وأنها سوف تذهب في هودج، وأن جارية سوف تكون متيقظة لأدنى حركة من حركاتها كي تنفذ إرادتها، وأنها سوف تتنزه تحت أشجار البرتقال المزهرة، وأن الثعابين لن تسبب لها أي خوف، نظراً لكونها غير موجودة في الآنتيل، وأن المتوحشين ما عادوا يخيفون، وأنه ليس هناك تهيأ الأسياخ لشيّ الناس، وأخيراً انهيت حديثي قائلاً لها بأنها سوف تكون جميلة جداً عندما تصير مولدة بيضاء.

مدام دابرانتيس

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

ابنة مينوس وباسيفاي(*)

بعد موت زوجة السيد لو نورمان دي ميزي الثانية بقليل، سنحت الفرصة لتي نويل أن يذهب إلى الكاب ليتسلم عدة للحفلات موصى عليها من باريس. وكانت المدينة في تلك المرحلة قد حققت تقدماً مذهلاً. كانت أغلب البيوت تتكون من طابقين وشرفات ذات أفاريز وأبواب من خشب نصف دائري مزينة بمزاليج جميلة أو بمفاصل على شكل وريقات النفل الثلاث. وازداد عدد الخياطين وبائعي القبعات والريش والحلاقين. وفي أحد الدكاكين كانت تباع آلات كمان وناي وتوليفات موسيقية الموسيقى «الكدريل» و«السونات». وكان صاحب المكتبة يعرض آخر عدد من «صحيفة سان دومينغ» مطبوعة على ورق رقيق وصفحاتها محاطة بالزخارف. وأكثر من كل ذلك تم افتتاح مسرح في شارع فودروي. وهذا الإزدهار خدم شارع الإسبان بوجه خاص: كان الأجانب الأكثر غنى ينزلون في فندق «التاج»

(*) مينوس هو ملك كريت الأسطوري، ابن أوروبا وزيوس، وزوج باسيفاي، قاضي الجحيم مع أياك ورادامنت.

Twitter: @alqareah

الذي اشتراه هنري كريستوف، وهو رئيس طباخين، من الآنسة مونجون، رئيسته سابقاً. وكانت الوجبات التي يقدمها الزنجي مشهورة بجودتها عندما يتعلق الأمر بزبون قادم من باريس وكذلك الخضار واللحم المسلوق إذا أراد إشباع شهية إسباني رصين، من أولئك الذين يأتون من الجانب الآخر من الجزيرة وهم يرتدون أزياء من الزمن الغابر بحيث يبدون وكأنهم صيادو ثيران قدامى. والشيء المؤكد هو أن هنري كريستوف الذي يختفي في مطبخه بقلنسوته البيضاء الطويلة، كان ماهراً في إعداد لحم السلحفاة والحمام البري. وعندما يضع يده في المعجن فإنه يصنع أفضل المعجنات الملكية التي تفوح رائحتها أبعد من شارع «الوجوه الثلاثة».

بعد أن بقي السيد لو نورمان دي ميزي وحيداً، كف عن احترام ذكرى زوجته المرحومة. فكان يرتاد مسرح الكاب، حيث كانت ممثلات أصيلات يأتين من باريس ويغنين مقاطع لجان جاك روسو أو يلقين بمهارة مقاطع من تراجيديات شعرية ماسحات عرقهن أثناء التوقف عند نصف بيت شعري. وفي تلك الأيام انتشرت أهجية شعرية مجهولة المؤلف، تهاجم خيانة بعض المترملين، وأعلنت للجميع أن مالكاً غنياً في السهل كان يتمتع في لياليه بجمال الآنسة فلوريدور الفلامندية، التي لا تؤتمن على سر، وهي تقوم دائماً بالأدوار الثانوية، لكنها ماهرة في فنون الحب، وبتأثير منها سافر السيد إلى باريس بطريقة غير متوقعة، تاركاً لأحد أقاربه أن يعتني بشؤون المزرعة. لكن أمراً مفاجئاً حدث له: بعد عدة شهور كشف له حنين متزايد للشمس، وللامتداد والوفرة والسيطرة وللزنجيات اللواتي كان يضاجعهن في الدروب الضيقة والمتعرجة، بأن هذه «العودة إلى فرنسا» التي عمل من أجلها

Twitter: @alqareah

طيلة أعوام، لم تعد تمثل بالنسبة له مفتاح السعادة. وبعد أن أفرط في لعن المستعمرة ومناخها، ونقد خشونة المستوطنين المتحدرين من مغامرين قدامى، عاد إلى المزرعة مع الممثلة التي رفضتها مسارح باريس بسبب قلة ذكائها وموهبتها في الفن الدرامي. ولهذا السبب جاءت يوم الأحد سيارتان جميلتان لتزينا السهل من جديد أثناء سيرهما باتجاه الكاتدرائية مع الحوذيين في بدلتيهما الموحدتين. وفي السيارة البرلينية التابعة للآنسة فلوريدور ـ كانت الفنانة تلح على مناداتها بإسمها الذي تُعرف به في المسرح ـ كانت عشر خلاسيات لا يتوقفن عن الحركة في المقعد الخلفي، يرتدين تنانير داخلية زرقاء وهن يقوقئن متنافسات في فساتينهن اللماعة المصطفقة في الريح.

* * *

انقضت عشرون سنة. وصار لتي نويل اثنا عشر ولداً من إحدى الطاهيات، وصارت المزرعة أكثر إشراقاً، بمماشيها المغروسة بـ «الأيبيكوا كانا»، وكرومها التي توفر عصير الحصرم، غير أن السيد لونورمان دي ميزي أمسى، مع تقدم سنه، مهووساً ومدمناً للخمر. ولقد جعله مسّ شبقي يترصد الجواري اللواتي تثيره رائحتهن في كل وقت، وكان ميله يزداد يوماً إثر يوم إلى إلحاق عقوبات جسدية بالرجال وخصوصاً عندما يفاجئهم يزنون خارج العلاقة الزوجية. ومن جانبها، كانت الممثلة، بعد أن ذوت وعضتها حمى المستنقعات، تنتقم لفشلها الفني بجلد الزنجيات اللائي يساعدنها في الاستحمام والتمشيط، من دون سبب. وكانت تدمن الشراب في ليال عديدة. ولم يكن من النادر عندئذ أن توقظ سائر المستخدمين، والقمر مايزال عالياً

Twitter: @alqareah

في كبد السماء، كي تمثل أمام العبيد، وسط تجشؤات عابقة بخمر «المالفوازي» اليونانية، أدوارها الكبيرة التي لم تستطع تمثيلها قط. كانت تنقض، متشحة ببرقع المؤتمنة على الأسرار، وبصوت متقطع، على مقاطع بارعة من ذخيرتها المسرحية:

طفح الكيل اليوم من آثامي

أتنفس المحارم والدجل في آن

ويداي القاتلتان، ها هنا للانتقام

من أجل الغوص في الدم البريء تشتعلان

كان الزنوج يندهشون من دون أن يفهموا شيئاً. ولكن نظراً لكونهم يدركون معاني بعض الكلمات المتعلّقة، في اللغة المولدة أيضاً، بخطايا تتدرج عقوبتها من الضرب إلى قطع الرأس، فقد انتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن هذه السيدة قد تكون ارتكبت من دون شك عدة جرائم في الماضي، ومن المحتمل أنها تقيم الآن في المستعمرة هرباً من شرطة باريس، مثل العديد من قحاب الكاب المطلوبات في بلدهن الأم. وكلمة جريمة في اللهجة المتداولة في الجزيرة هي الكلمة نفسها، والجميع يعرفون اسم القضاة بالفرنسية، أما فيما يتعلق بالجحيم وشياطينه الحمر، فإن زوجة السيد لو نورمان دي ميزي الثانية كانت، وهي المتشددة في موضوع الشهوات، قد علمتهم ما فيه الكفاية. إذن ليس ثمة ما هو تعليمي في اعترافات هذه المرأة التي ترتدي قميص حمام ابيض يمسي شفافاً تحت ضوء القمر:

في الجحيم يحاكم مينوس كل البشر الممتقعين،

آه! كم سيرتجف ظله المذعور

Twitter: @alqareah

عندما يشاهد ابنته ماثلة أمام عينيه،

مكرهة على الاعتراف بآثام عديدة،

وبجرائم ربما يجهلها الجحيم.

أمام كل ذلك الفجور، تابع عبيد مزرعة لو نورمان دي ميزي تبجيل ماكندال. وكان تي نويل يروي لأبنائه حكايات الماندنغ ويعلمهم أغاني بسيطة جداً، نظمها لتمجيده أثناء تمشيطه وتنظيفه للخيول. كما كان من الجيد تذكر الأكتع أحياناً، إذ أن الأخير الذي يوجد الآن بعيداً عن البلاد في مهمات عظيمة، سوف يعود في اليوم الأقل توقعاً.

2

الميثاق الكبير

كان الرعد يبدو وكأنه يتحطم ركاماً على جوانب الجبل الأحمر الصخرية، ثم يهوي طويلاً إلى أعماق المنحدرات، عندما وصل المفوضون من قِبَل مستخدمي سهل الشمال إلى عمق غابة التماسيح، والوحل يبلغ أحزمتهم وهم يرتجفون تحت أقمصتهم المبللة. وزيادة في المصيبة اشتدت أمطار أغسطس التي تكون دافئة ثم تبرد حسب اتجاه الريح، منذ أن أُعلن منع التجول على العبيد. كان بنطال تي نويل ملتصقاً بفخذيه وهو يحاول تغطية رأسه بكيس من قنب، طواه على شكل برنس. ورغم الظلام فقد كان متأكداً من أن أي جاسوس لم يتسلل إلى الاجتماع. ولقد قام رجال مختبرون بتبليغ الدعوات في آخر لحظة. ورغم أن الكلام كان يتم بأصوات خفيضة، فإن ضجة المحاورات ملأت الغابة بكاملها، واختلطت بوقع المطر على الأوراق الراجفة.

Twitter: @alqareah

فجأة ارتفع صوت قوي وسط مؤتمر الأشباح. صوت له مَلَكة الانتقال بلا تمهيد من نبرة خفيضة إلى نبرة مرتفعة مضيفاً على الكلمات تفخيماً غريباً. وكانت خطبته ذات الانعطافات الغاضبة، والمملوءة بالصياح، تشبه ابتهالاً، تعزيماً. إنه بوكمان الجامايكي الذي يتكلم بتلك الطريقة. ورغم أن الرعد خنق جملاً كاملة، فقد ذهب الظن بتي نويل إلى أن شيئاً ما حدث في فرنسا، وأن بعض السادة ذوي التأثير قد أعلنوا بأنه ينبغي تحرير الزنوج، لكن أغنياء الكاب، وكلهم ملكيون أبناء قحاب يرفضون الطاعة. ترك بوكمان الأمطار تنزل على الأشجار بضع ثوان، وكأنه ينتظر برقاً يلمع فوق البحر. وبعد قصف الرعد، أعلن بأن ميثاقاً قد تم عقده بين المطلعين على الأسرار هنا و«اللواس» الكبار في أفريقيا، من أجل بدء الحرب في الوقت المناسب. ومن الهتافات المحيطة به انطلق التحذير النهائي:

- إله البيض يأمر بالجريمة. آلهتنا تطالب بالثأر. وسوف تقود سواعدنا وتساعدنا. حطموا صورة إله البيض العطشان لدموعنا، ولنسمع في أنفسنا نداء الحرية!

نسي المفوضون المطر الذي كان يسيل من ذقونهم إلى بطونهم ميبساً جلد أحزمتهم. ارتفعت صيحات وسط العاصفة. وقرب بوكمان كانت زنجية بارزة التقاطيع، ممدودة الأطراف، وهي ترقص رقصاً دائرياً وبيدها خنجر شعائري كبير.

فاي أوغون، فاي أوغون، فاي أوغون، أوه!

دام بالله أطلق بالمدفع

فاي أوغون، فاي أوغون، فاي أوغون، أوه!

دام بالله أطلق بالمدفع

Twitter: @alqareah

أوغون الحديد، أوغون المحارب، أوغون صهر الحديد، أوغون الحدوات، أوغون الرماح، أوغون شانغو، أوغون كانكنيان، أوغون باطالا، أوغون باناما، أوغون باكوليه... تضرعت إليهم كاهنة رادا، وسط هتاف الأشباح:

أوغون با داغري

الجنرال الدامي

أمسك بالإعصار

هوذا الأعصر

يصنع كاطاؤون البرق

انغرز الخنجر بغتة في بطن خنزير أسود، ترك أحشاءه ورئتيه تسقط وهو يصيح. عندئذ نودي المفوضون بأسماء أسيادهم، إذ لم يكن لهم غيرها، فتتالوا واحداً واحداً واحداً كي يفركوا شفاههم بدم الخنزير المزبد الذي جُمع في قصعة كبيرة من خشب. ثم انبطحوا على الأرض المبتلة. أقسَمَ تي نويل مثل الآخرين بأن يطيع بوكمان. عندئذ عانق الجامايكي كلاً من جان فرنسوا وبياسو وجانو الذين لن يعودوا هذا المساء إلى مزارعهم. تشكل مجلس قيادة الثورة. وسوف تعطى الإشارة بعد ثمانية أيام. من المحتمل الحصول على مساعدة من المستوطنين الإسبان في الجهة الثانية، وهم أعداء ألدّاء للفرنسيين. وبما أنه يتوجب كتابة الإعلان ولا أحد يجيد الكتابة، فقد تم التفكير في ريشة الإوزة المرنة عند القس دي لاهاي، خوري دوندون الفولتيري الذي صار يبدي تعاطفاً لا لبْسَ فيه مع الزنوج منذ قراءته لإعلان حقوق الإنسان.

Twitter: @alqareah

توجب على تي نويل أن يسبح ليجتاز النهر بعد أن ارتفعت مياهه بسبب الأمطار، كي يكون في الإسطبل قبل استيقاظ السيد. وأثناء صلاة التبشير كان جالساً وهو يغني غاطساً حتى خاصرته في كومة من حلفاء طرية ضمَّختها الشمس.

3

نداء الأبواق

صار السيد لونورمان دي ميزي يبدي مزاجاً قاتلاً منذ زيارته الأخيرة إلى الكاب. وكان بلانشلند الحاكم الملكي مغتاظاً من هذيان أولئك الطوباويين المتعاطفين في باريس مع مصير العبيد الزنوج. آه! لقد كان من السهل الانصراف في مقهى «الريجنس» أو تحت أقواس «الباليه رويال» إلى الحلم بمساواة الناس من جميع الأعراق، أثناء لعب الورق ومن خلال رؤية مشاهد لموانئ أمريكية مزدانة بدوارات الرياح والأمواج المزبدة، وعبر رؤية لوحات للخلاسيات الكسولات والغسالات العاريات والقيلولة تحت أشجار الموز، تلك، التي رسمها أبراهام برونياس وانتشرت في فرنسا مع أشعار بارني، كان من السهل تخيل سان دومينغ بمثابة الفردوس النباتي لبول وفرجيني، حيث البطيخ الأصفر لا يتدلى في أغصان الأشجار، فقط لأن من شأنه أن يقتل المارة عندما يسقط من علٍ. وفي أيار قررت الجمعية التأسيسية المتكونة من رعاع ليبراليين منتشرين لنظريات «الموسوعة»، أن تمنح حقوقاً سياسية للزنوج المتحدرين من أحرار. والآن، أمام شبح حرب أهلية، أشار إليها الملاكون، يجيب الأيديولوجيون الذين من صنف ستانيسلالس ويمبفن: «فلتنقرض المستعمرات أفضل من أن تنقرض المبادئ».

Twitter: @alqareah

لا بد أن الساعة كانت حوالى العاشرة مساء عندما دخل السيد لونورمان دي ميزي، وهو مستغرق في تأملاته، إلى مستودع التبغ بنية اغتصاب إحدى الجواري اللائي تعودن المجيء في تلك الساعة لسرقة أوراق تبغ من مكان التجفيف حتى يتمكن آباؤهن من مضغ التبغ. وفي البعيد علا صوت بوق. والغريب أن أبواقا أخرى أجابتها الآن في الجبال وفي الغابات، ثم أخرى في الوهاد نحو البحر، وباتجاه مزارع ميلوت. يبدو وكأن كل أصداف الساحل والأبواق الصدفية التي توجد وحيدة ومتحجرة في ذرى الجبال قد بدأت تعزف لحناً جماعياً. فجأة ارتفع صوت بوق آخر في كوخ المزرعة الرئيسي. ثم أجابته أبواق أخرى، مزمارية النغم، من المنيلة ومجففة التبغ ومن الإسطبل. اختبأ السيد لونورمان دي ميزي، متخوفاً، خلف جهنمية متسلقة.

سقطت كل أبواب الأكواخ في وقت واحد مدفوعة من الداخل. حاصر العبيد المسلحون بهراوات وأوتاد، بيوت المراقبين واستولوا على الأدوات. وكان المحاسب أول من خرج وفي يده مسدس، وأول من سقط مقطوع الرأس بأداة تمليس. وبعد أن بللوا سواعدهم في دم الرجل الأبيض، ركض الزنوج إلى المسكن الرئيسي مطلقين صيحات الموت ضد السيد، والحاكم وضد إله جميع الفرنسيين في العالم. لكن أغلبهم هرعوا إلى القبو بحثاً عن الكحول، مدفوعين برغبات قمعت طويلاً. وبضربات الفأس بعجت البراميل فتدفق منها الخمر صابغاً تنانير النساء باللون الأحمر. وتحطمت، بين الصراخ واللطمات، قناني العرق وماء الحياة. وتزحلق الزنوج ضاحكين متزاحمين فوق طبقة من الزعتر البري والطماطم المكبوسة والكبر وبيض سمك الرنكه التي كانت تطفو

Twitter: @alqareah

على أغرض الآجر في زيت زنخ كان يسيل من قربة. ومن أجل الإضحاك اندس زنجي عاري الجسم تماماً في جرة كبيرة مملوءة بشحم الخنزير. وتخاصمت عجوزان أنغوليتان على جرة فخار. اقتلعت من السقف قطع خنزير مجففة وأذناب سمك الغادس. ومن دون أن يكترث بالحشد، ألصق تي نويل شفتيه مطولاً بفتحة برميل مملوء بخمر إسبانية في حركات قوية من عنقه. ثم صعد إلى الطابق الأول من المسكن، يتبعه أبناؤه الأبكار، ذلك أنه كان يفكر منذ زمن طويل في اغتصاب الآنسة فلوريدور، التي كانت في ليالي تراجيدياتها، تعرض تحت قميصها المشبك، نهدين لم تنتهكهما السنون.

4

دوغون(*) في السفينة

إثر يومين من الانتظار داخل بئر جافة لم يكن عمقها القليل ليخفف من كآبتها، أخرج السيد لونورمان دي ميزي رأسه من فوهة البئر، وقد شحب لونه من الجوع والخوف. كل شيء هادئ. ذهبت الجماعة إلى الكاب مخلفة حرائق تم تحديدها بمعاينة أعمدة الدخان المتصاعدة نحو قبة السماء. انفجر مخزن بارود صغير في الجوار. اقترب السيد من المسكن ماراً قرب جثة المحاسب المنتفخة. كانت رائحة عفنة تتصاعد من الحظائر المحروقة: هناك سوَّى الزنوج حسابات قديمة فطلوا الأبواب بالقطران لكي لا تبقى أية دابة حية. دخل السيد لونورمان دي ميزي غرفته. كانت الآنسة فلوريدور منفرجة الفخذين فوق

(*) DOGON أو DAGON إله الزراعة عند الفينيقيين والفلسطينيين القدامى.

Twitter: @alqareah

السجادة ومنجل مغروس في بطنها. كانت يدها الميتة ماتزال تمسك بإحدى قوائم السرير في حركة فظيعة التعبير وكأنها لوحة إباحية تزين الغرفة، عنوانها «حلم». انهار السيد لونورمان دي ميزي منتحباً قربها. ثم تناول مسبحة وتلا جميع الصلوات التي يعرفها، ولم ينس تلك التي حفظها وهو طفل من أجل الشفاء من تشقق الجلد بالبرد. وهكذا أمضى عدة أيام مذعوراً، دون التجرؤ على الخروج من مسكنه المشرع الأبواب على الخراب، إلى إن أوقف ناقل بريد حصانه في الفناء الخلفي، بطريقة مباغتة إلى حد أن المطية انزلقت دافعة بمنخريها على نافذة في انبجاس من شرر. أخرجت الأخبار التي صاح بها، السيد لونورمان دي ميزي من ذهوله، لقد تم التغلب على الحشد الفوضوي. ورأس بوكمان الجامايكي هي الآن فريسة للدود، مخضرة اللون، فاغرة الفم، في الموضع ذاته الذي أحرق فيه جسد ماكندال الأكتع. وتنظم الآن حملة إبادة كاملة للزنوج، لكن، ما تزال هناك جماعات مسلَّحة تنهب البيوت المنعزلة.

لم يتأخر السيد لونورمان دي ميزي وينشغل بدفن جثة زوجته، بل ركب خلف ناقل البريد الذي انطلق ركضاً بالحصان على طريق الكاب. دوى في البعيد صوت رصاص، فهمز ناقل البريد حصانه.

وصل السيد في الوقت المناسب، ليحول دون إعدام تي نويل واثني عشر عبداً آخر موسومين بالحديد، كانوا في ساحة الثكنة حيث الزنوج الموثوقون كل اثنين معاً، ظهراً لظهر، ينتظرون الموت بالسلاح الأبيض، حفاظاً على الذخيرة. كان أولئك آخر من تبقى له من العبيد وسعرهم هو على الأقل ستة آلاف وخمسمائة بيزو إسبانية في سوق هافانا. طالب السيد لونورمان دي ميزي

Twitter: @alqareah

بأقصى العقوبات الجسدية ولكنه توسل من أجل تأجيل التنفيذ ما دام لم يتصل بالحاكم. وكان السيد بلانشلند يرتجف من تهيج الأعصاب والأرق والإفراط في تناول القهوة، وهو يزرع مكتبه المزين بصورة للويس السادس عشر وماري أنطوانيت مع ولي العهد. وكان من الصعب استخلاص معنى محدد من «مونولوغه» المضطرب حيث تتعاقب شتائمه ضد الفلاسفة مع مقاطع من رسائل تنبؤ سبق أن بعث بها إلى باريس ولم يتم حتى الرد عليها. إن الفوضى تعم العالم. المستعمرة تسعى إلى هلاكها. لقد اغتصب الزنوج كل الآنسات المشهورات في سهل الشمال تقريباً. وبعد أن مزقوا أقمشة الدنتيل وملاءات الصوف، وقتلوا رؤساء العمال، لم تعد ثمة أية وسيلة لإيقافهم. كان السيد بلانشلند مع الإبادة الكاملة للعبيد من زنوج وخلاسيين أحرار. ينبغي إعدام كل شخص له دم أفريقي في عروقه سواء كان زنجياً أم خلاسياً، مملوكاً أم ناسكاً، أو حتى عنقاء. كان يتوجب عدم الانخداع بصيحات الإعجاب التي كان يطلقها العبيد عندما تضاء فوانيس المذود. لقد سبق للأب «لابات» أن عبر عن ذلك جيداً بعد زيارته الأولى للجزيرة: السود يتصرفون مثل الفلسطينيين القدامى الذين كانوا يعبدون دوغون في السفينة. ثم نطق المحافظ بكلمة لم يعرها السيد لونورمان دي ميزي حتى ذلك الوقت أي اهتمام: الفودو(*).

تذكر الآن أن ذلك المحامي الشهواني، الأحمر الوجه، والمدعو مورو دي سانت ميري كان قبل سنوات قد جمع معلومات في الكاب عن الطقوس المتوحشة لدى سحرة الجبال، ولقد ذكر بأن بعض الزنوج يعبدون الثعبانيات. أقلقته هذه الأفكار التي استعادتها ذاكرته، وجعلته يدرك أن الطبل قد يعني أكثر من جلد

(*) تطلق الكلمة VAUDOU على عبادة السود في الآنتيل، وهي مزيج من الإحيائية (حيوية المادة) وبعض الطقوس الكاثوليكية.

Twitter: @alqareah

جَدي بسيط مشدود على جذع شجرة مفرغ. لقد كانت للزنوج إذن ديانة سرية تشجعهم وتجعلهم متضامنين في تمردهم. وربما لاحظ طقوس تلك الديانة طيلة سنوات عبر طبول أوائل الشهر، دون أن يرتاب. ولكن، هل من شأن مثقف أن يكترث لديانات متوحشة عند قوم يعبدون ثعباناً؟

جاب السيد لونورمان دي ميزي شوارع المدينة حتى الليل، مكتئباً بعمق من تشاؤم المحافظ. تأمل رأس بوكمان ملياً وانهال عليه بالشتائم حتى مل تكرار الكلام البذيء نفسه. ذهب إلى محل لويزون البدينة حيث نزيلاتها المضغوطات الأجساد في الموسلين الأبيض، يروحن على أثدائهن العارية في باحة مملوءة بقشور المالنغا، لكن الجو سيء في كل مكان. توجه نحو شارع الإسبان بنيّة تناول الكحول في فندق التاج. وعندما وجده مغلقاً، تذكر أن الطاهي هنري كريستوف كان قد ترك عمله منذ أيام ليرتدي بزة جندي في المدفعية الاستعمارية. ومنذ أن تخلى عن تاج النحاس المذهب، شعار الفندق، لم يبق في الكاب محل واحد يمكن فيه لرجل محترم أن يتناول طعامه كما يشتهي.

استعاد السيد لونورمان دي ميزي بعض نشاطه بقدح من عرق قصب السكر تناوله في إحدى الحانات ثم دخل في مفاوضات مع صاحب سفينة نقل تعمل بالفحم، متوقفة منذ أشهر، وسترفع مرساتها من جديد باتجاه سانتياغو دي كوبا حالما يتم الانتهاء من تزفيت هيكلها الخارجي.

5

سانتياغو دي كوبا

تجاوزت السفينة رأس الكاب. وبقيت المدينة في الوراء، مهددة دائماً بالزنوج الذين أُعلموا بتقديم مساعدة عسكرية من

Twitter: @alqareah

الإسبان، مهددة بالحرارة التي يدافع بها بعض اليعاقبة الإنسانيين عن قضيتهم. وفي حين كان تي نويل ورفاقه مسجونين في قعر السفينة، وعرقهم متصبب على أكياس فحم، كان المسافرون ذوو المحتد الرفيع يستنشقون النسيم العليل في مضيق الرياح وهم مجتمعون في كوثل(*) السفينة. كانت توجد مغنية من فرقة الكاب الجديدة. أُحرق الفندق الذي كانت تقيم فيه ليلة الفتنة، ولم يتبق لها من الثياب سوى ما يشبه فستان «عليسة» مهجورة، وموسيقار من الألزاس تمكن من إنقاذ بيانه القيثاري الفاسد الدوزنة حالياً بملح البارود، فكان يقاطع أحيانا لحناً من سوناتا جون فريدريك أدلمان ليشاهد سمكة مجنحة تنط فوق سرب كلوفيس أصفر. ويكمل قائمة ركاب السفينة مركيز ملكي وضابطان جمهوريان، وصانعة تخاريم دانتيلا وخوري إيطالي حمل معه معرض القربان المقدس من الكنيسة.

توجه السيد لونورمان دي ميزي، عشية بلوغه سانتياغو، مباشرة إلى مسرح التيفولي ذي السطح المغطى بسعف النخيل، وقد بناه حديثاً أول اللاجئين الفرنسيين، إذ أنهم يستفظعون الخمارات الكوبية بنباتاتها القاتلة للذباب والحمير المربوطة عند مدخلها. وبعد القلق والخوف والتغيرات الكبيرة وجد جواً منعشاً في ذلك المقهى ـ المغنى، وكانت أفضل الموائد يشغلها أصدقاء قدامى من الملاكين الذين هربوا مثله من خناجر الغوغاء. ولكن الشيء الغريب هو أن المستوطنين القدامى، بعد القضاء على ثرواتهم ونصف عائلاتهم وبناتهم اللائي اغتصبهن الزنوج ـ وهو أمر ليس بالقليل ـ لم تكن تبدو عليهم الشكوى بل كانوا يبدون

(*) مؤخرتها.

Twitter: @alqareah

أكثر شباباً. بينما سحب غيرهم من المتبصرين أموالهم من سان دومينغ، وانتقلوا إلى نيو ـ أورليانز أو بدأوا يستصلحون مزارع أخرى للبن في كوبا، أما الذين لم يتمكنوا من إنقاذ أي شيء فكانوا مسرورين بالفوضى والعيش ليومهم، بعيداً عن الإلتزامات، محاولين إيجاد المتعة في كل شيء. اكتشف الأرمل محاسن العزوبية، وتعاطت الزوجة المحترمة الزنى بحماس المكتشف، وتمتع العسكريون بعدم سماع النوبات الصباحية، واغترت الآنسات البروتستانتيات بالصعود إلى خشبة المسرح عارضات أجسادهن مع أحمر شفاه وشامات على وجوههن. وسقطت كل المراتب البورجوازية الاستعمارية. أهم ما هنالك الآن إنما هو النفخ في البوق والرقص الإيقاعي في مسرح تيفولي. والذين كانوا في السابق من موثقي العقود صاروا الآن ينسخون توزيعات موسيقية وجباة الضرائب يرسمون ديكورات مثقلة بأعمدة وجذوع تماثيل على قماشات طولها اثنا عشر متراً. وفي ساعات التجارب المسرحية، عندما تكون سانتياغو بكاملها غارقة في القيلولة خلف نوافذها الخشبية وأبوابها المسمرة، قرب تماثيل تطواف معفرة بآخر غبار عيد القربان، لم يكن من النادر سماع امرأة مسنة ومهيبة، ذاع صيت تفانيها وورعها بالأمس، تغني بحركات مرتخية:

تحت شرعته يريد الحب أن ننعم

بسعادة أبداً لا تنتهي...

كان هناك إعلان عن حفلة كبيرة ساهرة ببدلات من طراز رعوي، وهي دُرجة (موضة) عفا عليها الزمن في باريس منذ زمن طويل ستشارك فيها بقايا التجهيزات التي نجت من نهب

Twitter: @alqareah

الزنوج، وكانت الشرفات المزينة بسعف النخيل الملكي تتيح الفرصة للقاءات ممتعة في حين كان ثمة جهير أول مغتر بدوره، وهو ثابت على المسرح بسبب لحن صعب الأداء عن «الهارب من الجندية» لمونسيغني، ولأول مرة في سانتياغو دي كوبا سمعت موسيقى الكدريل وموسيقى رقصة الرجل. وبدأت آخر شعور القرن المستعارة التي تعتمرها بنات المستوطنين، تدور على إيقاع الموسيقى الثلاثية الممهدة للفالس، وفي الخارج كانت تهب على المدينة ريح فسق ونزوات وفوضى. وانكب الشباب المولدون على تقليد دُرجات المهاجرين تاركين لأعضاء المجالس البلدية ارتداء اللباس الإسباني العتيق. وشرع العديد من السيدات الكوبيات يتلقين دروساً في التربية والآداب الفرنسية خفية عن الخوارنة ويتدربن على فن عرض الأقدام لإبراز قيمة الحذاء. وفي المساء عندما يحضر السيد لونورمان دي ميزي العرض وهو سكران، كان يقف لينشد مع الآخرين، حسب العرف الذي اتبعه اللاجئون أنفسهم، نشيد سان لويس والمارسييز.

كان السيد لونورمان دي ميزي يعيش حالة فراغ، عاجزاً عن ملء ذهنه بأية مسألة، فانكب على لعب الورق والصلاة. وأخذ يتخلص من عبيده الواحد تلو الآخر، ليقامر بالمال في أقرب محل للقمار، ويدفع ما عليه من ديون للتيفولي أو يضاجع بعض الزنجيات اللواتي يبعن الهوى في الميناء وعلى شعورهن المجعدة زهور زينبات، ونظراً لكون المرآة صارت تعكس وجهه كل أسبوع بصورة أكثر شيخوخة، فقد خاف نداء الله. كان ماسونياً في الماضي، فتحدى اليوم صرعات الموضة. ولهذا السبب اعتاد زيارة كاتدرائية سانتياغو لساعات طويلة برفقة تي

Twitter: @alqareah

نويل، متمتماً في الأثناء ومزمجراً بصلوات تقَوِيَّة. في حين كان الزنجي ينام تحت رسم مطران أو يحضر تمارين على ترتيل أنشودة الميلاد يقودها شيخ كثير الصراخ، بنفسجي البشرة ونحيل، يدعى «دون استبان سالاس». لقد كان يستحيل الفهم حقاً لماذا يصر قائد الترتيل، والجميع يحترمونه، على جعل الكورس يرتل لوحة الصلوات تلك محدثاً ضجة عارمة. لا شك أن تلك طريقة سويسرية يتبعها ذلك الشيخ الذي نسب إليه تي نويل سلطة كنيسة كبيرة، نظراً لكونه كان مسلحاً ويرتدي سروالا مثل البشر. ورغم السيمفونيات المتنافرة التي كان دون استبان سالاس يغنيها بالنفخ في الأبواق والمزامير المزدوجة وبأصوات أطفال الكورس الحادة، فقد وجد الزنجي في الكنائس الإسبانية حرارة «الفودو» التي تفتقر إليها الكنائس الأخرى في الكاب. كان للذهب الباروكي غير المتناسق وشعر المسيح البشري ولغز كراسي الاعتراف المثقلة بالنقوش وكلب الدومينيكان، والتنينات التي تسحقها أقدام مقدسة، وخنزير القديس أنطوان، ولون القديس بنْوا الغامق، والعذراوات السود والقديس جرجس بخُفِّه ذي السيور الجلدية وصدريته التي تشبه صدريات ممثلي التراجيديا الفرنسيين، والآلات الرعوية التي تعزف في ليالي الميلاد، جميعها كانت تتحلى بقوة شاملة، قوة جاذبة ـ حضورات، رموز، صفات وعلامات ـ تشب تلك التي تتصاعد من الهياكل المخصصة لدام بالله، الإله ـ الثعبان. ثم إن القديس جاك هو أوغون فاي، بيطري الزوابع، الذي ثار رجال بوكمان استجابة منهم لتوسلاته. وبمثابة صلاة، كان تي نويل يرتل له نشيداً قديماً لماكندال:

انا ابن الحرب، أيها القديس جاك:

Twitter: @alqareah

ألا ترى بأنني ابن الحرب

أيها القديس جاك؟

6

سفينة الكلاب

ذات صباح امتلأ مرفأ سانتياغو بالنباح. وفي أنبار سفينة شراعية، كانت مئات الكلاب تشحن ضرباً بالسياط مربوطة إلى بعضها البعض، وهي تزمجر خلف كماماتها، وتحاول عض حراسها وعض بعضها البعض، ثم تندفع نحو الناس المتفرجين عبر قضبان النوافذ، فتعض وتعض من دون طائل. ووصلت كلاب أخرى، وأخرى أيضاً، يقودها حراس مزارع وفلاحون بيض وصائدون بالكلاب ينتعلون جزمات ضخمة، اقترب تي نويل، وقد اشترى سمكة قجاج بأمر من سيده، ليشاهد المركب العجيب حيث كانت كلاب الحراسة لا تني تدخل رهطاً رهطاً في حين كان ضابط فرنسي يعدها أثناء دخولها دافعاً بكريات شبكة صيد.

ـ إلى أين يشحنونها؟

صاح تي نويل ببحار خلاسي كان يبسط شبكة ليغلق كوة في المركب.

ـ لتلتهم زنوجاً!

هزىء البحار فوق النباح المتصاعد.

هذه الإجابة التي جاءت بلهجة مولدة، كانت بالنسبة لتي نويل بمثابة كشف. هرع إلى ساحة الكاتدرائية حيث يوجد عادة زنوج

Twitter: @alqareah

فرنسيون ينتظرون سيدهم عند خروجهم من القداس. وبالتحديد كانت عائلة دو فريني قد فقدت كل أمل في المحافظة على أراضيها، ووصلت إلى سانتياغو قبل ثلاثة أيام، بعد أن هجرت المزرعة التي ذاعت شهرتها بإلقاء القبض على ماكندال. وكان لدى زنوج دوفريني أخبار جديدة من الكاب.

* * *

منذ الإبحار، أحست بولين وكأنها ملكة على متن السفينة الشراعية المحملة بالجند والتي تندفع الآن نحو الآنتيل وجبالها تصر على إيقاع الأمواج المتألقة. كان عشيقها، الممثل لافون قد عودها على أدوار الملكة، هادراً من أجلها بالأشعار الملكية من مأساة بايازيد ومثريدات(*). وبسبب ذاكرتها الضعيفة، حاولت بولين بصعوبة أن تتذكر «والهيلسبون(**) يبيض تحت مجاذيفنا» على إيقاع الزبد الذي كانت تخلفه باخرة «الأوقيانوس» وهي تتقدم ناشرة أشرعتها مثل راية حربية في الهواء. وضاعت منها الآن أبيات شعرية كثيرة مع تغير وجهة النسمات البحرية. ولا شك أنها الآن تفكر في أشياء جدية بعد أن أخرت سفر جيش كامل بنزوتها البريئة في السفر من باريس إلى بريست على محفة أياد. كانت توجد سلال مختومة تحتوي على أوشحة من جزيرة موريس ومشدات خصر رعوية، وتنانير موسلين مخططة سوف ترتديها مع اشتداد الحرارة، ذلك أن الدوقة دابرانتيس(***) حدثتها عن الموضة في المستعمرة. ولم تكن الرحلة مضجرة إجمالاً. صلى

(*) مسرحيتان تراجيديتان للمسرحي الفرنسي راسين استوحاهما من تاريخ الإمبراطورية العثمانية.

(**) الاسم القديم لمضيق الدردنيل.

(***) زوجة جينو دوق دابرانتيس، مرافق نابليون بونابرت في حملته الأولى على إيطاليا، انتحر بعد نوبة جنون، ولزوجته كتاب «مذكرات».

Twitter: @alqareah

المرشد، في جؤجؤ السفينة، القداس الأول لدى تجاوز خليج غاسكوني وطقسه السيئ، فاجتمع كل الضباط في بدلاتهم العسكرية حول الجنرال لكليرك، زوجها. كان بعضهم مزهواً بشخصيته، أما بولين التي تفهم الرجال جيداً رغم حداثة سنها، فكانت تلتذ بالرغبة المتزايدة التي تختفي وراء التبجيل والاهتمام بها. كانت تدرك بأن مئات الرجال يحلمون بها في القمرات والجؤجؤ وما بين جسري السفينة، عندما تتمايل الفوانيس في أعلى الصواري، تحت السماء الناصعة النجوم. كما أنها كانت تحب التظاهر كل صباح بأنها تتأمل على جؤجؤ السفينة، قرب صاري شراع الميزان، تاركة الريح تلهو بشعرها وتلصق ثيابها بجسدها لتبرز شكل نهديها الجميلين.

بعد أيام من اجتياز قناة السور، وتأمل الكنائس البرتغالية البيضاء في القرى البعيدة، اكتشفت بولين بأن البحر يتغير. صار مزداناً الآن بعناقيد عنب أصفر تتجه نحو الشمال، وكان يوجد سمك براك وكأنه من كريستال أخضر وميدوزات(*) تشبه مثانات زرقاء، وهي تجر خلفها أسلاك إضاءة حمراء، وأسماك خطرة ذات أنياب طويلة، وحبارات كأنها سجينة في برقع عروس خفيف رهيف الحواشي. بلغت السفينة منطقة حارّة أجبرت الضباط على فك أزرار بدلاتهم، وسمح لهم لكليرك بكشف صدورهم، حتى يتمكن هو من القيام بذلك بدوره. ليلة خانقة. خرجت بولين من قمرتها في قميص نوم وذهبت لتتمدد على طرف المؤخرة الذي خصص لها من أجل القيلولة. وميض فوسفوري غريب يضفي على الموج انعكاسات خضراء. في حين كانت ثمة برودة خفيفة تبدو

(*) حيوانات بحرية هلامية تضيء في الليل.

Twitter: @alqareah

وكأنها تنزل من النجوم التي كان عددها يزداد أكثر فأكثر، وعند الفجر اكتشف مراقب السفينة حضور امرأة عارية نائمة على شراع مطوي، تحت الشراع المثلث الزوايا في المقدمة. كاد البحار ينساب إليها بحبل ظناً منه أنها خادمة وصيفة، لكن حركة قامت بها النائمة معلنة عن استيقاظ قريب، كشفت له بأنه إنما كان يتأمل جسد بولين بونابرت. دعكت عينيها ضاحكة مثل طفلة، وقد انتابتها قشعريرة من رياح الصابيات الصباحية، وكانت تظن أنها في منأى عن الأنظار بالأشرعة التي تغطي بقية الجسر، فصبت عدة أسطل ماء عذب فوق كتفيها. ومنذ تلك الليلة باتت تنام في الهواء الطلق وأدى عدم اكتراثها الكريم إلى اكتشافها من قبل الجميع، إلى حد أن السيد اسمينارد نفسه، وهو المكلف بتنظيم شرطة القمع في سان دومينغ، حلم مستيقظاً بهيئتها التي تذكر بغالاتيا آلهة الإغريق البحرية.

سُرَّتْ بولين بمدينة الكاب وسهل الشمال بخلفيّته الجبلية، المظللة بالبخار المتصاعد من مزارع القصب. وكانت قد قرأت قصة حب «بول وفيرجيني» وتعرف موسيقى مولدة جميلة ذات إيقاع غريب طبعت في باريس تحت عنوان «ساكن الجزيرة». كانت تشعر أنها طائر فردوس حيناً، وطير قيثارة حيناً، في تنورة الموسلين، واكتشفت نعومة السرخس، عصير الزعرور الأسمر، والأوراق الضخمة التي يمكن أن تطوى كالمروحة. في المساء حدثها لكليرك، مقطب الحاجبين، عن ثورات الزنوج، والصعوبات مع المستعمرين الملكيين وعن أخطار عديدة. وتحسباً للخطر فقد اشترى بيتاً في جزيرة السلحفاة. لكن بولين لم تكن لتكترث. كانت تتابع تأثرها بـ «زنجي ما دام البيض قليلين»، رواية جوزيف لافالي المثيرة للدموع، والتمتع بذلك

Twitter: @alqareah

البذخ وتلك الوفرة اللذين لم تتعرف إليهما في طفولتها المفعمة بالصبار الجاف والزيتون الزنخ.

كانت تسكن قرب كاتدرائية في بيت واسع مبني بصخور منحوتة، ومحاط بحديقة ظليلة. أمرت بحفر مسبح مزين بفسيفساء أزرق، تحت ظل أشجار التمر الهندي، حيث تسبح عارية تماماً. كانت وصيفاتها الفرنسيات يمسدنها في البداية، لكنها فكرت ذات يوم بأن يد رجل سوف تكون ضليعة ورحبة أكثر، وضمنت خدمات سليمان، وهو خادم قديم في حمام، ولم يكن يعتني بجسدها فحسب، بل كان يدلكها بمرهم اللوز وينتف شعيراتها ويقص أظافر قدميها. وعندما تتركه يغسلها، كانت تشعر بلذة ماكرة تحت ماء المسبح، أثناء ملامستها لخاصرة الخادم الصلبة، مدركة أنه يتقد رغبة دائماً، وينظر إليها جانبياً بلطف مزيف ككلب يثيره سوط. لقد اعتادت ضربه بغصن أخضر، دون أن تؤذيه، وتضحك من تكشيرات الألم التي كان يتظاهر بها، وكانت في الواقع ممتنة له بذلك الاعتناء المغرم الذي يبديه في شتى التفاصيل المتعلقة بجمالها. لذلك كانت أحيانا تسمح للزنجي، كمكافأة له على خدمة أداها بسرعة أو بعناية، أن يقبل ساقيها راكعاً في حركة كان من شأن برناردان دي سان بيار(*) أن يذهب إلى القول بأنها رمز لعرفان الجميل من قِبل روح سانجة أمام جهود الأنوار السخية.

وهكذا كانت تقضي وقتها، ما بين قيلولة وتثاؤب، معتقدة أنها فيرجيني تارة، وأتالا(**) طوراً، رغم أنها أحيانا، عندما يذهب لكليرك إلى الجنوب، تتسلى بين ذراعي ضابط شاب، ملتهب

(*) مؤلف «بول وفرجيني».
(**) بطلة رواية لشاتوبريان تدور أحداثها في أجواء أمريكية.

Twitter: @alqareah

وجميل. لكن، ذات مساء انهار الحلاق الفرنسي الذي يعتني بشعرها مع أربعة وصفاء، أمامها، متقيئاً دماً عفناً نصف متخثر. وبدأ كدر جديد يطن في حلم بولين بونابرت الإستوائي.

7

قديس البلبلة

تحت إلحاح لكليرك الذي اجتاز قرى أتى عليها الوباء، التجأت بولين إلى جزيرة السلحفاة برفقة الزنجي سليمان والوصيفات المحملات بالمتاع. تلهت خلال الأيام الأولى بالسباحة في مرسى رملي وبتصفح مذكرات الطبيب الجراح ألكسندر أوليفييه وكسميلان الذي عرف جيداً عادات وآثام قراصنة أمريكا ومغامريها. وقد بقيت من حياتهن الصاخبة في الجزيرة آثار قلعة مريعة. وكانت بولين تضحك عندما تكشف لها مرآة غرفتها بأن سحنتها المسمرة من لفح الشمس، صارت تشبه سحنة خلاسية فاتنة. لكن راحتها لم تطل، ذات مساء وصل لكليرك بمركبه إلى الجزيرة، جسده مختلج بقشعريرة شؤم، وعيناه صفراوان. وقدم له الطبيب الذي يرافقه جرعات قوية من الراوند.

تملك الرعب بولين. وكان ذهنها مسكوناً بصور غامضة عن وباء كوليرا في أجاكسيو. نعوش تخرج من المنازل على أكتاف رجال سود، أرامل موشحات بالسواد، ينتحبن تحت أشجار التين، بنات يرتدين الأسود ويرغبن في الاندفاع إلى قبور أهلهن، فيسحبن خارج المقبرة. وفجأة تملكها ذلك الشعور بالسجن الذي كان ينتابها كثيراً في طفولتها. أثارت فيها جزيرة السلحفاة، بتربتها المتيبسة وصخورها المحمرة وصبار صحرائها حيث تصر الزيزان، وبحرها المرئي دائماً، مشاعر الجزيرة التي ولدت

Twitter: @alqareah

فيها. لا مجال للهروب. خلف هذا الباب يحتضر رجل أخرق أتى بالموت مع رتبته العسكرية، وعندما اقتنعت بولين بفشل الأطباء استمعت إلى نصائح سليمان الذي أمر بحرق البخور والنيلة وقشور الليمون وتلاوة صلوات لها تأثير خارق مثل صلاة القاضي الأكبر والقديس جورج وقديس البلبلة. فسمحت بغسل أبواب المنزل بأعشاب معطرة وبقايا تبغ. ركعت أمام صليب من خشب داكن بورع ريفي فيه الكثير من التبجح منادية مع الزنجي في نهاية كل دعاء: ليذهب الشر، بسرعة، وليختف، آمين. وفضلاً عن التعزيم كانت عملية دق مسمارين على شكل صليب في جذع شجرة ليمون، تحرك فيها بقايا دم كورسيكي قديم أقرب إلى روح حيوية الكون عند الزنجي منها إلى أكاذيب حكومة المديرين في فرنسا التي أفقدها كفرها وعي ذاتها. وتملّكها الندم على سخريتها سابقاً من الأشياء المقدسة لإتباع موضة العصر. وزاد احتضار لكليرك في خوفها وجعلها تتقدم أكثر نحو القوى التي كان يخاطبها سليمان أثناء توسلاته كسيد حقيقي للجزيرة ومدافع وحيد يقف في وجه الوباء الآتي من الضفة الأخرى، والطبيب الأوحد مقابل أطباء الوصفات التي لا تجدي نفعاً. ولكي يمنع الزنجي البخار المرضي من التغلغل في الماء، كان يضع مراكب صغيرة مصنوعة من نصف قشرة جوزة هند ويجعلها تطفو فوق الماء مزينة بأشرطة مأخوذة من سلة خياطة بولين. وكانت تلك هبات لـ «أغاسو» إله البحر. ذات صباح وجدت بولين تصميماً لسفينة حربية في أمتعة لكليرك. فأتت بها راكضة إلى الشاطىء كي يضيف سليمان إلى هباته تلك القطعة الفنية. كان ينبغي مقاومة الوباء بشتى الوسائل: نذور، تكفير، مسوح، صوم، ابتهالات إلى أي كان، رغم أن «العدو المزيف» في طفولتها كان أحيانا يُظهر طرف أذنه الشَّعْراء. فجأة صارت بولين تمشي في

Twitter: @alqareah

البيت بطريقة غريبة متفادية وضع قدميها فوق أماكن تقاطع البلاط الذي، من المعلوم أنه لا يشكل مربعات إلا بتحريض مارق من الماسونيين الراغبين في رؤية الناس يدوسون الصليب في كل ساعات النهار. ولم يعد سليمان يضمخ صدرها بخلاصات عطرة أو بمياه نعناع، بل بمراهم عرق القصب وحبوب مسحوقة وعصارات دبقة ودم طيور. ذات صباح اندهشت الوصيفات الفرنسيات عندما اكتشفن الزنجي يرقص رقصة غريبة حول بولين وهي راكعة على الأرض وشعرها متطاير. كان سليمان ينط مثل طائر، شاهراً خنجراً صدئاً ولا يرتدي سوى زنار يتدلى منه منديل أبيض لستر عورته، في حين كانت تزين رقبته قلادات زرقاء وحمراء. وكان الاثنان يطلقان تأوهات تخرج من صدريهما، وكأنها عواء كلب في ليلة مقمرة. بينما كان ثمة ديك مخنوق مايزال يخبط بجناحيه فوق كمية من حب الذرة الصفراء. وعندما أدرك الزنجي أن إحدى الخادمات تراقب المشهد، أغلق الباب ساخطاً بركلة من قدمه. وفي ذلك المساء أمكن مشاهدة تماثيل عديدة لقديسين معلقة في عارضات السقف ورؤوسها إلى أسفل. ولم يعد سليمان يفارق بولين، كان ينام في غرفتها على سجادة حمراء.

قاد موت لكليرك المصاب بالحمى الصفراء بولين إلى عتبة الجنون، بدت لها منطقة الإستواء فظيعة بنسورها المتريثة على السطوح حيث ينزف البعض بقطرات الاحتضار. وضعت جثة زوجها ببدلته العسكرية في نعش من خشب أرز ثم سافرت بسرعة على متن «السوايتشور»، نحيلة مزرقة الجفنين، غائرة العينين وصدرها مغطى بكتفية رهبان. لكن سرعان ما خفت آلامها بريح الشمال والشعور برؤية باريس وبالملح الذي كان يقرض حلقات

Twitter: @alqareah

النعش. وذات مساء كان البحر فيه هائجاً يجعل رافدات العارضة في قعر المركب تطقطق. أخذ وشاح حدادها في مهماز ضابط فتي مكلف بالاعتناء بجثمان الجنرال لكليرك. وفي السلة التي تحتوي على حاجيات التنكر الخلاسية كانت توجد تعويذة مخصصة للأب «ليغبا»، صنعها سليمان كي تفتح لبولين بونابرت كل الدروب التي توصلها إلى روما.

اختفى كل حس سليم من المستعمرة مع رحيل بولين. وتحت حكم روشمبو، فقد آخر ملاكي السهل كلّ أمل في استعادة رخاء الماضي فانكبوا على التهتك والعربدة ولم يعد أحد ليهتم بالوقت ولم تعد الليالي تنتهي مع الفجر. كان ينبغي استنفاد الخمور وإنهاك الأجساد والعودة إلى المتعة قبل أن تأتي كارثة ما على إمكانية المتعة. وكان الحاكم يبادل الخدمات بالنساء. وسخرت نساء الكاب من مرسوم لكليرك الذي نص على أن «النساء البيضاوات اللائي يزنين مع زنوج، ينبغي طردهن إلى فرنسا مهما كانت مرتبتهن». وتعاطى العديد من النساء السحاق وتباهين في الحفلات بخلاسيات كن يسمينهن عاهراتهن. وكانت بنات العبيد يغتصبن في طفولتهن. وما أن اتبع هذا الأسلوب حتى تم الوصول بسرعة إلى ما هو أفظع. ففي أيام الأعياد كان روشمبو يجعل كلابه تلتهم زنوجا. وعندما لا تصمم الأنياب على تمزيق جسد بشري أمام العديد من الرجال المرموقين من لابسي الحرير، كانت الضحية تتلقى ضربة سيف لكي يسيل الدم، شهياً. وفكر الحاكم أنه بذلك يضمن هدوء السود فأرسل في طلب مئات الكلاب الشرسة من كوبا:

ـ سوف نطعمها اللحم الأسود!

يوم دخلت السفينة، التي رآها تي نويل، مرسى الكاب، لاقت

Twitter: @alqareah

سفينة شراعية أخرى مقبلة من المارتينيك، محملة بثعابين سامة أراد الجنرال أن يطلقها في السهل كي تلسع الفلاحين القاطنين في أكواخ منعزلة والذين يساعدون زنوج الجبل الآبقين. لكن، كان على تلك الثعابين وهي مخلوقات دام بالله، أن تموت من دون أن تبيض متلاشية في آن واحد مع آخر مستوطني النظام القديم. وها إن «اللواس العظام» يساعدون اليوم الأسلحة السوداء. بدأ أولئك الذين لهم آلهة حرب يتوسلون إليها وينتصرون. وكان «أوغون باداغري» يقود الهجوم بالسلاح الأبيض على آخر معاقل آلهة العقل. وكما هو حال المعارك التي تستحق الخلود فعلاً لأن شخصاً ما أوقف الشمس أو هدم أسوارا بنفخة في بوق، كان هناك في تلك الأيام، رجال عراة الصدور سدوا فوهات المدافع المعادية، ورجال كانت لهم القدرة على إبعاد رصاص البنادق عن أجسادهم. عندئذ شوهد كهنة سود في القرى من دون إكليل رأس أو ترتيب، يدعون الآباء السهوب. ولم تكن لنتقصهم المعرفة التي للخوارنة الفرنسيين كي يرتلوا صلوات باللاتينية على فراش محتضر. لكن الجميع كان يفهمهم أفضل، لأنهم عندما يرتلون «أبانا...» أو السلام الملائكي على مريم، يعرفون كيف يسبغون على النص لهجات وإمالات صوتية تشبه تلك التي تشوب أناشيد أخرى يعرفها الجميع. وأخيراً، بدأت تناقش في العائلات عدة مسائل تتعلق بالموتى وبالأحياء.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الثالث

في كل مكان كانت توجد تيجان ملكية مذهبة وكان بينها ما هو شديد الثقل بحيث يتعذر رفعه.

كارل ريتر

شاهد على نهب سان سوسي(*)

(*) كارل ريتر: جغرافي الماني (1779 ـ 1859) عني بدراسة الروابط بين الظواهر الطبيعية والبشرية.
سان سوسي: حرفياً «بلا هم» SANS-SOUCI اسم لعدة قصور.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

العلامات

نزل زنجي شيخ لكنه مايزال قوياً ثابتاً على رجليه الجاسئتين بأصابعهما الناتئة، من المركب الشراعي الذي رسا لتوه قرب رصيف سان مارك. وفي البعيد، باتجاه الشمال، كانت ذرى الجبال ترسم، في لون أزرق، أغمق من زرقة السماء بقليل، خيالاً معروفاً جيداً. ودون أن ينتظر أكثر، أمسك تي نويل بعصا غليظة وخرج من المدينة. لقد أمسى بعيداً ذلك الزمن الذي ربحه فيه أحد أثرياء سانتياغو في لعبة ورق من السيد لونورمان دي ميزي، الذي مات بعد قليل في بؤس شديد. وتحت سلطة سيده المولد عرف حياة أكثر تحملاً من تلك التي فرضها المستوطنون الفرنسيون في سهل الشمال على عبيدهم. وهكذا ادخر المال الذي كان سيده يعطيه إياه كل رأس سنة، واستطاع أن يدفع الثمن الذي طلبه صاحب مركب صيد. صار تي نويل حراً رغم أنه يحمل علامات الوسم بالحديد. وها هو ذا الآن يجوب أرضاً ألغيت منها العبودية إلى الأبد.

خلال اليوم الأول من مسيرته بلغ شواطئ الأرتيبونيت واضطجع تحت شجرة ليقضي الليل. وفي الفجر واصل طريقه

Twitter: @alqareah

الذي يمتد بين كروم برية وأشجار خيزران. هتف له رجال يغسلون الخيول بأشياء لم يفهمها جيداً لكنه أجاب عنها على طريقته في التحدث بما يجول في رأسه. ثم إن تي نويل لا يكون وحده أبداً حتى ولو كان بمفرده. وهو يعرف منذ زمن طويل فن التحدث مع الكراسي والطناجر، مع قيثارة أو بقرة أو مع ظله. هنا الناس مرحون. لكن بعد منعطف أحد الدروب بدت النباتات والأشجار جافة وكأنها تحولت إلى هياكل نباتات وأشجار في تربة كانت حمراء خشنة وصارت الآن تشبه غبار دهاليز أرضية.

لم تعد تشاهد مقابر مضاءة بقبورها الصغيرة البيضاء، مثل معابد قديمة بحجم حجرة كلب. هنا يدفن الموتى على حافة الطريق في سهل صامت ومعاد، يغزوه الصبار والأكاسيا. وأحيانا يدل كوخ موتد مهجور على هروب السكان من وخم مرضي. وكل النباتات التي تنمو هنا لها شفرات وإبر وعصارة مؤذية. والأناس القليلون الذين رآهم تي نويل لم يردوا على تحيته. كانوا يواصلون طريقهم مطرقين مثل كلابهم. فجأة توقف الزنجي متنفساً بعمق. كان هناك جدي مشنوق معلق إلى شجرة شائكة. الأرض مغطاة بعلامات: ثلاثة أحجار تشكل نصف دائرة مع عساليج موضوعة على شكل قوس قوطي بمثابة باب. وأبعد منها بقليل كانت ثمة ثلاثة فراريج سوداء مربوطة من قائمة واحدة وهي تتأرجح ورؤوسها إلى أسفل على طول غصن مشحم. وآخر العلامات شجرة مشؤومة، جذعها منتفش بإبر سوداء، وحولها قرابين. وفي جذورها غرزت عكاكيز معوجة مشققة وذات سروع(*). عكاكيز ليغبا، إله الدروب.

ركع تي نويل وشكر السماء لأنها وهبته فرحة العودة إلى

(*) أغصان رفيعة كالتي في الكروم.

Twitter: @alqareah

بلاد المواثيق الكبيرة. ذلك أنه كان يدرك جيداً، مثل سائر الزنوج الفرنسيين في سانتياغو دي كوبا، بأن انتصار ديسالين(*) إنما يعود إلى تحضير طويل تدخل فيه كل من لوكو وبترو، وأوغون فراي وبريز بيمبا وكابلاو بيمبا ومارينييت بواشيش وكل آلهة البارود والنار، في سلسلة عمليات عنيفة ومتتابعة أدت إلى طيران بعض الناس في الهواء أو إلى ارتطامهم بالأرض بفعل التعاويذ. ثم تم عجن الدم والبارود ودقيق القمح والبن لصنع الخليط القادر على جعل الأسلاف يعودون في حين كانت تقرع الطبول المنذورة ويتشابك حديد المطلعين على الأسرار فوق نار مضطرمة، وفي أوج الحماس ركب أحد الملهمين على رجلين يحمحمان ويبدوان جانبياً كأنهما قنطورس(**): ويمكن القول إنهما كانا ينزلان ركضاً إلى البحر الذي كان فيما وراء الليل، وفيما وراء ليالي عديدة، يلعق تخوم عالم القوى السامية.

2

سان سوسي

بعد أن سار تي نويل عدة ساعات، بدأ يتعرف إلى بعض الأماكن. وعرف من طعم الماء أنه كثيراً ما سبح في هذا الجدول الذي يتعرج باتجاه الشاطئ. مر قرب المغارة التي كان ماكندال سابقاً يعطن فيها نباتاته السامة. زاد تلهفه ونزل وادي دوندون الضيق ليصل أخيراً إلى سهل الشمال. حاذى الشاطئ ثم توجه نحو مزرعة لونورمان دي ميزي القديمة.

(*) DESSALINES (جان جاك) إمبراطور هايتي، زنجي ولد في غينيا، ثار على روشمبو وطرده من الجزيرة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً (1804) بعد أن أمر بإبادة البيض، واغتاله منافسون له. م.

(**) كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

Twitter: @alqareah

وبفضل شجرات القابوق الثلاث المزروعة على شكل مثلث، أدرك أنه وصل. لكن، لم يبق شيء من تلك الأشياء: المنيلة، الحظائر، مجففات اللحم. ولم يتبق من البيت سوى مدخنة من آجر يغطيها لبلاب عتيق وتالف بفعل أشعة الشمس الحارقة، ومن المستودعات لم يبق سوى بعض البلاط المنغرز في الأرض ومن مصلى المزرعة، ما زال ديك دوارة الهواء الحديدي. هنا وهناك تنتصب شقة جدار مثل حروف كبيرة محطمة. اختفى الصنوبر والكروم والأشجار الأوروبية الأصل، وكذلك بستان البقول حيث قديماً كان يبيض الهليون ويتصلب قلب الأرضي شوكي بين عطر النعناع ونسيم المردقوش. تحولت المزرعة بكاملها إلى أرض مهجورة يخترقها درب. جلس تي نويل على حجر زاوية في المنزل القديم. حجر كأي حجر آخر بالنسبة لشخص ليست له ذاكرة تي نويل. كان يحدث النمل عندما جعلته ضجة مفاجئة يدير رأسه. كان هناك عدة فرسان يقبلون نحوه ركضاً ببدلات لماعة ذات سترات زرقاء مغطاة بزخارف وياقات مزركشة وأكمام مزينة بالسجف، وبناطيل من جلد الأيل وقلنسوات عليها ريشات زرقاء سماوية وجزمات خشنة. ولأن تي نويل تعود على بساطة البدلات الإسبانية في المرحلة الكولونيالية، فقد تملكته دهشة الاكتشاف فجأة، أبهة من نمط نابليوني رفعها قوم عرقه إلى درجة عالية من الجلال يجهلها جنرالات كورسيكا أنفسهم. مر الضباط قربه، تغطيهم سحابة من غبار ذهبي ثم ابتعدوا باتجاه «ميلوت» تعقب الشيخ أثرهم مشدوهاً عبر زوبعة الغبار التي كانت تثيرها خيولهم.

شعر إثر خروجه من دغل، وكأنه يدخل بستاناً فاخراً. كانت كل الأراضي المحيطة بالبلدة متقنة مثل بستان مزرعة، بسواقيها ذات الزاوية القائمة وأثلامها المخضرة بنباتات حديثة. وكان

Twitter: @alqareah

عدد كبير من الناس يعملون في تلك الحقول تحت مراقبة جنود مسلحين بسياط، كانوا بين فينة وأخرى يقذفون أحد الكسالى بحجر. «إنهم مساجين»، فكر تي نويل عندما رأى الحراس من الزنوج وكذلك العمال، الأمر الذي يناقض المفاهيم التي حصل عليها في سانتياغو دي كوبا، خلال العشايا التي تمكن فيها من حضور إحدى تلك الحفلات التي يرقصون فيها على إيقاع الطبول أثناء اجتماع الزنوج الفرنسيين، لكن الشيخ توقف الآن مذهولاً من أقل المشاهد توقعاً، وأشدها تأثيراً في حياته الطويلة. على خلفية جبال مخططة بألوان بنفسجية لمغارات عميقة، يرتفع قصر وردي، قصر محصن ذو نوافذ مقوسة يكاد يكون معلقاً في الفضاء بسبب القاعدة المرتفعة التي تشكل درجاً من حجارة. من جهة كانت توجد سقائف طويلة مغطاة، ولا شك أنها ملحقات وثكنات وحظائر. ومن الجهة الأخرى يوجد بناء مدور تتوجه قبة مستندة إلى أعمدة بيضاء، وكان يخرج منه كهنة عديدون في دروعهم، وكان تي نويل كلما اقترب، يكتشف مصاطب وتماثيل وأقواسا وحدائق ومماشي وجداول اصطناعية ومتاهات من نباتات الشمشاد. وتحت عمودين مستطيلين يسندان شمساً سوداء كبيرة من خشب، كان أسدان من البرونز يحرسان. وفي ساحة الشرف عسكريون منهمكون جداً يرتدون الأبيض وهم يذهبون ويجيئون وضباط يرتدون قبعات مقرنة وبدلات لماعة، يطقطقون بسيوفهم على أفخاذهم. ومن شباك مفتوح كان يبدو التحضير لأوركسترا حفلة ساهرة، ومن نوافذ القصر تلوح نساء متوجات بالريش ونهودهن الكبيرة مرفوعة بفساتين رائجة التفصيل. وفي إحدى الباحات كان حوذيان يرتديان كسوة الخدمة، يغسلان عربة كبيرة مذهبة بكاملها ومغطاة بشموس ناتئة. وعندما مر تي نويل أمام البناء الدائري الذي خرج منه الكهنة، أدرك أنها كنيسة

Twitter: @alqareah

مملوءة ببسط ورايات وقباب مذبح تغطي تمثالاً كبيراً «للحبل بلا دنس». لكن الشيء الذي أدهش تي نويل أكثر إنما هو الاكتشاف بأن هذا العالم المذهل الذي لم يعرف مثله حكام الكاب الفرنسيون، هو عالم زنوج. فالنساء الجميلات ذوات الأرداف الضخمة اللائي كن يرقصن حول منهل مزين بالودع هن زنجيات، والوزيران اللذان يرتديان جوربين أبيضين وينزلان سلم الشرف بحقيبة من جلد عجل تحت الإبط هما زنجيان. وذلك الطباخ ذو القلنسوة المزينة بفرو القاقم(*)، والذي يتسلم أيلا من الفلاحين الذين يقودهم رئيس الصائدين بالكلاب، هو طباخ زنجي. ومروضو الخيول زنوج وساقي الخمر ذو السلسلة الذهبية حول عنقه والذي يتأمل برفقة مدجن الباز تدريبات ممثلين سود في مسرح عشب أخضر، والغلمان ذوو الشعور البيضاء المستعارة كلهم سود، وأخيراً سوداء كانت، سوداء تماماً كانت الحبلى بلا دنس المنتصبة على المذبح الرئيسي في الكنيسة، مبتسمة بلطف للموسيقيين السود الذين كانوا يتدربون على الترتيل. أدرك تي نويل أنه في سان سوسي، المقر المفضل للملك هنري كريستوف ذاك الذي كان طباخاً في شارع الإسبان ومالكاً لفندق التاج وها هو ذا اليوم يسك على النقود الحرفين الأولين من اسمه والشعار المتكبر: «إلهي، قضيتي وسيفي».

تلقى الشيخ ضربة عصا قوية على ظهره. وقبل أن يتمكن من الاحتجاج، قاده حارس وهو يركله نحو إحدى الثكنات. وعندما وجد تي نويل نفسه سجيناً داخل زنزانة، بدأ يصرخ بأنه يعرف شخصياً هنري كريستوف بل ذهب إلى أنه يعرف بأنه تزوج منذ ذلك الوقت ماري لويز كوادافيد، ابنة أخٍ لعاملة دانتيلا ثم عتقها،

(*) حيوان من فصيلة السموريات.

Twitter: @alqareah

وكانت تأتي مراراً إلى مزرعة لونورمان دي ميزي. لكن لم يكترث له أحد. وفي المساء أخذوه مع سجناء آخرين إلى أسفل «قلنسوة المطران» حيث كانت توجد أكداس من مواد البناء. وضعوا آجرة بين يديه:

ـ أصعدها، وعد لتحمل أخرى.

ـ أنا مسن جداً.

تلقى تي نويل ضربة هراوة على جمجمته. ومن دون أي اعتراض بدأ يتسلق الجبل مع صف طويل من الأطفال والبنات الحبالى والنساء والشيوخ الذين كان كل واحد منهم يحمل آجرة أيضاً. يمم الشيخ بنظره صوب «ميلوت». بدأ القصر في الغسق ورودياً أكثر من قبل. وقرب تمثال نصفي لبولين بونابرت، سبق وأن زين منزلها في الكاب، كانت الأميرتان الشابتان أثيناس وأميتيست تلهوان في فساتين من الساتان بعرى مزخرفة. وأبعد منهما بقليل كان مرشد الملكة، وهو الوحيد الذي له وجه فاتح في اللوحة، يقرأ كتاب بلوتارك «الحيوات المتوازية» لولي العهد، تحت نظرات إعجاب هنري كريستوف الذي كان يتجول يتبعه وزراؤه، في حدائق الملكة. ولدى مروره، قطف صاحب الجلالة بلا انتباه وردة بيضاء، تفتحت منذ قليل فوق نبات الشمشاد الذي يظهر جانبياً تاجاً وطائر فينيق أسفل منحوتات المرمر الرمزية.

3

ثيران التضحية

على ذروة جبل «قلنسوة المطران» المحفوف بسقالات البناء ينتصب الجبل الثاني ـ جبل فوق جبل ـ وهو قلعة لافيريير. كان هناك ما يشبه الفطر الأحمر الغامق كالديباج، يتسلق منحدرات

Twitter: @alqareah

البرج الرئيسي، بعد استخدام المهاميز وأعقابها الجلدية، على امتداد الأسوار ذات اللون الأمغر. في تلك الكتلة من الآجر الملتهب، والمرتفعة فوق السحاب إلى حد أن الأبعاد تتحدى عادات البصر، حفرت أنفاق ودهاليز ودروب سرية ومداخن ممتلئة بظلمات كثيفة. في حين كان ضوء أخضر مزرق ينزل في بخار رطب من أعلى المنافذ وكوى رمي القذائف. وعبر السلالم الجهنمية تتصل ثلاثة مدافع مع جبخانة سفينة، وغرفة جنود المدفعية والمطابخ والصهاريج ومصهر الحديد والمسبك والسجن. وفي قلب ساحة الأسلحة كانت تنحر يومياً ثلاثة ثيران من أجل جَبْل دمها مع لياط الرمل والكلس لضمان مناعة القلعة. ومن جهة البحر المهيمن على مشهد السهل المدوخ، كان العمال يجصصون غرف الجناح الملكي، وشقق النساء وغرف الأكل وقاعات البلياردو. وعلى محاور عجلات مركبة في الجدران، كانت تُمَد الجسور الطائرة وعبرها تنقل الحجارة والآجر إلى المصاطب العليا المبنيّة بين هاويتين، داخلية وخارجية، تُشعِر البنائين بالدوار. وأحيانا كان أحد الزنوج يتلاشى في الفراغ ساحباً معه دلواً من اللياط. وسرعان ما يعوضه آخر دون أن يفكر أحد في ذاك الذي سقط. كان مئات الرجال يعملون داخل ذلك البناء الضخم تحت مراقبة السوط والبندقية، كانوا ينفذون بناء لم يُشاهد مثله حتى ذلك الوقت إلا في الفن المعماري الخيالي الذي تصوره بيرانيزي(*). وصلت المدافع الأولى مرفوعة بحبال على منحدرات الجبل، وتم رفعها فوق ركائز من خشب الأرز على طول القاعات المقببة الغاطسة في ظل دائم والتي تشرف كوى الرمي فيها على كل منافذ البلد وشعابه. كان يوجد مرمر أملس من نوع «سيبيون»

(*) نحات ومعماري إيطالي (1720 ـ 1778) له أكثر من مائتي رسم مطبوع استلهمه فيا بعد الفنانون الكلاسيكيون الجدد.

Twitter: @alqareah

و«حنيبعل» و«أميلكار» ولون برونزي يكاد يكون مذهباً، قرب ذاك الذي بني بعد 89، مع الشعار غير المعين بعد «حرية، مساواة». وعلى فوهة مدفع إسباني كان يمكن قراءة هذه الكتابة المحزنة: «وفيّ لكن بائس». وكانت ثمة مدافع أخرى ذات فوهات أوسع وأكثر نقوشاً. وعليها شارة ملك الشمس الذي كان يعرض بوقاحة «آخر حجج الملوك»(*).

عندما ترك تي نويل آجرته تحت سور، كان الوقت يقترب من منتصف الليل. ورغم ذلك كانت عمليات البناء تتم على ضوء المشاعل. وعلى الطرقات كان يوجد رجال نائمون على أكداس حجارة أو على مدافع مهجورة، قرب بغال جريحة الركب من كثرة سقوطها أثناء الصعود. تمدد الشيخ منهكاً في خندق تحت الجسر المعلق. وفي الفجر أيقظوه بضربة سوط. أما في الأعلى فكانت الثيران المهيأة للتضحية مع طلوع النهار تخور. وارتفعت سقالات أخرى تحت السحب الباردة قبل أن يمتلئ الجبل كله بالصهيل والصياح ونداء الأبواق وضرب السياط وصرير الحبال وقد نفخها الندى. شرع تي نويل ينزل ناحية ميلوت كي يحمل آجرة أخرى. وفي طريقه لاحظ أن صفوفاً متراصة من النساء والأطفال والشيوخ كانت تتسلق السفح عبر الدروب والمماشي، وهم يحملون الآجرة نفسها ليضعوها تحت سور القاعة التي كانت تبنى وكأنها وكر لسوس الخشب، مع قطع الطين المشوي التي كانت تصعد نحوها من دون انقطاع، من فصل إلى آخر، من طرف السنة إلى طرفها الآخر. علم تي نويل أن الأمر دام أكثر من اثنتي عشرة سنة وأن كل سكان سهل الشمال قد تم تجنيدهم بالقوة لإنجاز هذا المشروع العجيب. خُنقت كل محاولات الاحتجاج في الدم.

(*) شعار أمر لويس الرابع عشر بنقشه على مدافعه.

Twitter: @alqareah

وأثناء سيره من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، انهمك الزنجي مفكراً أن جوقات الغرف في سان سوسي وأبهة البدلات وتماثيل «البيضاوات العاريات» اللواتي يتدفأن في الشمس على قاعدة مزينة بتشبيك زهري، ما بين نباتات الشمشاد المشذبة، إنما تعزى إلى استعباد أشد من ذاك الذي عرفه في مزرعة السيد لونورمان دي ميزي. بل أسوأ، لأنه كان من المؤلم جداً أن يجلده زنجي مثله، أسود مثله، أهدل مثله، مجعد الشعر، قصيره مثله، أفطس مثله، لا قيمة له وربما هو موسوم بالحديد مثله أيضاً. كان ذلك كما لو أن أبناء بيت واحد يضربون أهله، الحفيد يضرب الجد، والكنات يضربن الأم التي تطبخ. ثم إن المستعمرين كانوا يحرصون سابقاً على عدم قتل عبيدهم، إلا إذا كانوا من الأشقياء، ذلك أن موت عبد واحد كان يترك فراغاً كبيراً في أكياس نقودهم. في حين أن موت زنجي هنا لا يكلف الخزانة العامة أي شيء: ما دامت هناك زنجيات لإنجاب الأطفال ـ وهن موجودات وسوف يبقين موجودات ـ فلن يكون هناك نقص في العمال لنقل الآجر إلى قمة «قلنسوة المطران».

كان الملك كريستوف يصعد غالباً إلى الحصن، برفقة ضباطه على الخيول، ليتأكد من تقدم العمل. كان قصيراً، سميناً، وقوياً، مقوس الصدر قليلاً. مفلطح الأنف وذقنه منغرز قليلاً في ياقة سترة الفارس المزركشة، يتفقد المدافع والمسابك والورشات، مُرنّاً بمهمازيه في أعلى السلالم التي لا تنتهي. وعلى قبعته النابليونية ذات القرنين عين طائر داخل شارة من لونين. كان يأمر أحياناً، وبمجرد إشارة من سوطه، بقتل أحد المتكاسلين عن العمل أو بإعدام عمال متباطئين في رفع جلمود صخر مقدود، ثم ينتهي إلى الجلوس على مقعد مريح فوق المصطبة العليا التي تشرف على البحر، على حافة الهوة التي

Twitter: @alqareah

تجعل أكثر الناس اعتياداً على الدوار يغمضون عيونهم. عندئذ يبدأ، من دون شك أو قلق، في سبر امتداد سلطته. في حال محاولة فرنسا العودة إلى غزو الجزيرة، يمكنه، هو، هنري كريستوف «إلهي، قضيتي وسيفي»، أن يقاوم ويصمد هنا فوق السحاب، كل الوقت الضروري، مع بلاطه، وجيشه، ومرشديه وموسيقييه، وغلمانه الأفارقة ومهرجيه. سوف يعيش معه خمسة عشر ألف رجل، ما بين هذه الجدران العملاقة، دون أن ينقصه شيء. وحالما يُرفع الجسر المتحرك التابع للبوابة الوحيدة سوف تكون قلعة لافيريير هي البلاد نفسها، مع استقلالها وملكها وماليتها وعظمتها. ذلك أن الزنوج في الأسفل سوف ينسون الآلام التي سببها البناء ويرفعون عيونهم ناحية القلعة الملأى بالذرة وبالبارود، بالحديد وبالذهب، مفكرين أن هناك، فوق الطيور، هناك حيث لا تصل حياة السهل إلا من بعيد، يوجد ملك من عرقهم، مع قرع نواقيسه وصياح ديكته ينتظر قرب السماء، أن تدوي السنابك البرونزية لخيول «أوغون» التي يبلغ عددها عشرة آلاف. وهذه الأبراج لم تنبت سدى فوق خوار الثيران المنحورة والدامية، وخصاها معرّضة للشمس. لقد شيّدها بناؤون يدركون جيداً معنى التضحية العميق، رغم أنه قيل للجاهلين بأن الأمر لا يتعلق سوى بتقدم في تقنية البناء العسكري.

4

سجين الجدار

عندما أشرفت أشغال القلعة على الإنتهاء وصار الحرفيون ضروريين أكثر من حمالي الآجر، خفت صرامة النظام قليلاً، ورغم أنه تم رفع الملاط أيضاً ومدافع أخرى إلى الصخور المرتفعة في الجبل، فإن الكثيرات من النساء تمكّن من العودة إلى

Twitter: @alqareah

قدورهن التي غلفتها العناكب بشبكات نسيجها الرمادي. كان تي نويل من بين الذين أُخلي سبيلهم لقلة فائدتهم، فتوارى ذات صباح من دون أن يلتفت نحو القلعة التي تخلصت من سقالاتها في جانب مدفع الأميرات المالكات، أما الجذوع التي ترتفع الآن على السفح بقوة العتلات فإنها ستستخدم في دف أرضيات الغرف والأجنحة بألواح خشبية. لكن، لا شيء من كل ذلك شد انتباه تي نويل الذي كان يريد الإقامة في أراضي لونورمان دي ميزي القديمة، إلى حيث يعود الآن كما يعود الأنقليس إلى الطمي الذي رآه يولد. وعندما بلغ المزرعة شاعراً بأنه سيد هذه الأرض نوعاً ما، لأن الأحداث التي جرت فيها ليس لها من معنى عند غيره، بدأ بضربات خنجره، هنا وهناك، يخرج بعض الأنقاض. وكشف سقوط شجرتي أكاسيا عن وجود شقة جدار. ولاح تحت أوراق دباء برية، البلاط الأزرق في قاعة الأكل. غطى الزنجي مدخنة المطبخ القديم المحطمة الجانب بسعف نخيل وحصل بذلك على غرفة يتوجب الدخول إليها زحفاً، ثم ملأها بـ «لحى الهنود» كي يريحه ذلك النبات من الضربات التي تلقاها في مسالك قلنسوة المطران.

مرت عليه وهو هناك رياح الشتاء، والأمطار التي تلتها، وشاهد قدوم الفصل الجاف، ببطن منتفخ، لكثرة ما تناول من فواكه خضراء، و«مانغو» مائي، دون التجرؤ على الخروج كثيراً، خوفاً من رجال كريستوف الذين كانوا يبحثون عن رجال ربما لبناء القصر الجديد الذي يتحدثون عنه، على شواطئ الأرتيبونيت، وله من النوافذ بعدد أيام السنة. ولكن، عندما مرت عدة شهور دون تغيير يذكر، عزم تي نويل وقد أُشبع بؤساً على السفر إلى مدينة الكاب. سار محاذياً البحر قرب الدرب الممحو الذي كثيراً ما مشى عليه في السابق، خلف سيده، عندما كان يعود إلى المزرعة ممتطياً صهوة مهر يشبه ركضه صرير خف من جلد ماعز،

Twitter: @alqareah

وماتزال على عنقه تلك الغضون اللطيفة التي للمهر. المدينة جيدة، في المدينة يتمكن المرء دائماً من التقاط شيء ما بغصن متفرع لوضعه في زوادة تتدلى على الكتف، في المدينة توجد قحاب ذوات قلوب رحيمة يقدمن صدقات للشيوخ، توجد أسواق فيها موسيقى وحيوانات مدربة، دمى تتكلم وطباخات يمزحن مع أولئك الذين بدلاً من تسول الخبز، يشيرون بإصبعهم إلى قنينة عرق. أحس تي نويل ببرد شديد يتغلغل في عظامه تأسف على قوارير الزمن القديم، قوارير القبو في بيت المزرعة، تلك القوارير المربعة، ذات الزجاج السميك، والمعبأة بلحاء وأعشاب وتوت وبقول الحرف المائية المنقوعة في الكحول، وكلها تبث بريقها الهادئ ورائحتها الزكية.

لكن تي نويل وجد المدينة بكاملها في انتظار موت. كما لو أن النوافذ وأبواب المنازل والمشربيات والكوى كلها قد التفتت نحو زاوية الأبرشية في ترقبٍ قلق يجعل الواجهات تكثر. كانت السطوح تجذب أفاريزها، وزوايا الطرقات تتقدم والرطوبة لا ترسم على الجدران سوى آذان. وفي زاوية الأبرشية كان ثمة مستطيل من الإسمنت مايزال يجف، مختلطاً ببناء السور، لكنه كان مثقوباً بفتحة تهوية. ومن تلك الفتحة السوداء مثل فم أدرد، انطلق فجأة عويل فظيع ارتعش له كل السكان وانتحب الأطفال في البيوت. وعندما سمعته النساء الحوامل وضعن أيديهن على بطونهن بينما ركض بعض المارة دون أن يتوقفوا عن رسم إشارة الصليب، ظل العويل والصراخ الجنوني يرتفعان من زاوية الأبرشية، إلى أن انتهى العنق المدمى إلى التمزق وسط لعنات حرمان كنسي وتهديدات غامضة وتنبؤات وشتائم. ثم آن وقت الدموع، دموع مقتلعة من أعماق الصدر، تباكي مولود جديد مختلط بنبرات صوت شيخ لا تطاق. وفي الأخير عوضت البكاء

Twitter: @alqareah

حشرجة ثلاثية الإيقاع كانت تضعف قليلاً قليلاً بإيقاع ربوي طويل، حتى لم يتبق إلا تنهدة بسيطة. وبقي هذا المشهد يتكرر ليل نهار في زاوية الأبرشية. وما عاد أحد لينام في الكاب. لا أحد يتجرأ على المرور عبر الشوارع المتجاورة. وداخل البيوت كانت ترتل الصلوات بصوت خفيض في أكثر الغرف انزواء. لم يجازف أحد بالتعليق عما كان يحدث. ذلك أن الراهب الكبوشي الذي سجن بجدار في الأبرشية ودفن حياً في زاوية المصلى، إنما كان كورنيخو براي، دوق الآنس ومرشد الاعتراف عند هنري كريستوف. لقد حكم عليه بالموت هناك، تحت الجدار المملط حديثاً، لأنه متهم بالرغبة في العودة إلى فرنسا والحال إنه يعرف كل أسرار الملك، كل أسرار القلعة، التي تلقت أبراجها الحمراء صواعق لمرات عديدة. كان بإمكان الملكة ماري لويز أن تتوسل سدى، وهي تحضن جزمتي زوجها بذراعيها، إن هنري كريستوف الذي شتم لتوه القديس بطرس متهماً إياه بإرسال زوبعة أخرى على قلعته، لم يكن ليصاب بالهلع أمام دعاء الحرمان غير المجدي من قبل كبوشي فرنسي. ودفعاً لأي شك فقد حظيت سان سوسي بمرشد إسباني له قلنسوة طويلة، متآمر وثرثار، يحب ترتيل القداس بصوت عميق وخفيض، والجميع ينادونه خوان دي ديوس. لقد مل الراهب المحتال حمّص الإسبان ولحمهم المدخن في المنحدر الثاني، وها هو ذا الآن في البلاط «الهايتي» حيث النساء يغمرنه بالفواكه المعقدة بالسكر وبخمور البرتغال. وسرت الشائعات بأن المصير الذي لقيه كورنيخو براي إنما سببه بعض جمل نطق بها الراهب المحتال عرضاً بحضور كريستوف الذي كان يدرب كلاب الصيد على القفز.

وبعد أسبوع في السجن أمسى صوت الكبوشي، سجين الجدار، لا يكاد يسمع، متلاشياً في حشرجة محزورة أكثر منها

Twitter: @alqareah

مسموعة. ثم خيم الصمت على زاوية الأبرشية. صمت امتد أكثر مما يجب لمدينة كفت عن الإيمان بالصمت، ووحده مولود جديد يتجرأ على كسره بصراخ الاستهلال، جاعلاً الحياة بذلك، تتابع مجراها المعتاد مع نداءات الباعة وحفلاتها التذكارية والمقاطع التي تغنى أثناء نشر الغسيل. عندئذ تمكن تي نويل من وضع بعض الأشياء في زوادته، وحصل من بحار ثمل على مبلغ كاف لاحتساء خمسة كؤوس عرق، الكأس تلو الكأس. ثم قفل راجعاً وهو يترنح تحت ضوء القمر، متذكراً بغير وضوح أغنية قديمة كان يرددها كلما عاد من المدينة. أغنية تقول قذارات عن ملك. وهنا تكمن الأهمية: عن ملك. وهكذا شرع يشتم هنري كريستوف ويرهق نفسه في التفكير بأنه سوف يحتجز مع تاجه وعرقه، فوجد الدرب قصيراً إلى درجة أنه، عندما استلقى على فراشه المغطى بنباتات «لحى الهنود»، تساءل إن كان حقاً قد ذهب إلى مدينة الكاب.

5

وقائع 15 أغسطس

«نبت مثل نخلة في قادش، مثل روضة ورود في أريحا. ارتفعت مثل زيتونة مبارك نموها في السهل، مثل شجرة دلب على درب منبسط يحاذي المياه. أعبق بشذى قرفة وبلسم عطر، شذى يشبه أريج المر النفيس».

لم تفهم(*) الملكة ماري لويز شيئاً من الصلاة اللاتينية التي تلاها خوان دي ديوس غونثاليث مع تغير في مقام الصوت، ووجدت في ذلك الصباح تناغماً غريباً بين رائحة البخور وأريج أشجار البرتقال في فناء مجاور وبعض الكلمات في درس

(*) نص الصلاة في الأصل باللاتينية وقد ارتأينا ترجمته إلى العربية أيضاً. م.

Twitter: @alqareah

الطقوس الذي تعرض لعطور معروفة، وأسماؤها مكتوبة على أصص الخزف الصيني عند عطار سان سوسي. أما هنري كريستوف فإنه لم يتوصل إلى متابعة القداس بالاهتمام المطلوب، ذلك أنه كان يحس قلبه مختنقاً بقلق لا تفسير له. لقد أراد أن يقام قداس صعود العذراء في كنيسة ليموناد، ضد الرأي العام، وهي كنيسة، يبعث رخامها الرمادي ذو المسامات الرقيقة انطباعاً بالبرودة. فيخف نضح العرق تحت السترات المزررة وثقل الأوسمة والشارات. وفي الأثناء أحس الملك أنه محاط بقوى معادية. فالشعب الذي هتف له لدى وصوله، يضمر نوايا سيئة. لأنه يتذكر المحاصيل الضائعة، على أرض خصبة رغم ذلك، نظراً لكون القوم انشغلوا ببناء القلعة. لا شك أن هناك، في بيت ما منعزل، صورة له تشكها الإبر أو معلقة بطريقة سيئة مع سكين منغرز في موضع القلب. وفي البعيد كان يعلو قرع طبل لا شك أنهم لا يقرعونه توسلاً لله كي يمدد في حياته. ولكن ها هي ذي صلاة التقديم في القداس.

«صعدت مريم إلى السماء، ابتهجت الملائكة، وسبحت معاً لله، هللويا».

وفجأة شرع خوان دي ديوس غونثاليث يتراجع إلى الوراء باتجاه المقاعد الملكية، منزلقاً بطريقة خرقاء فوق درجات الرخام الثلاث. تركت الملكة سبحتها تسقط. وضع الملك يده على مقبض سيفه، انتصب قس آخر يرتدي أسمالا أمام المذبح، رؤيا فضائية في مواجهة المؤمنين. وفي حين كان الوجه يكتسب صرامة وتعبيراً، خرج من فمه الخالي من الشفتين والأسنان والأسود كفتحة معتمة، خرج صوت مرعب، تذبذب في جناح الكنيسة كعزف الأرغن، جاعلاً الزجاج يرتج في إطاراته الرصاصية.

Twitter: @alqareah

«خلص أيها الرب أرواح جميع المؤمنين الميتين، خلصها من كل صلة بخطاياها».

اختنق اسم كورنيخو براي في حنجرة كريستوف وتركه منذهلاً، إذ أن المطران سجين الجدار ذاك الذي يعلم الجميع بأنه مات وبدأ يتعفن، هو الذي كان على المذبح الرئيسي، متحلياً بكل أبهته الكنسية زاعقا بـ «يوم الغضب» وعندما سمعت كلمات *«دفعهم جميعاً أمام العرش»* في صخب دف مضاعف، انهار خوان دي ديوس غونثاليث نائحاً عند قدمي الملكة. ولم يستطع هنري كريستوف، بعينين جاحظتين، أن يتحمل سماع مواصلة الاستماع أبعد من *«ملك ذو عظمة تبعث الرعب»*. وفي هذه اللحظة هوت الصاعقة، التي سمعها وحده، على برج الكنيسة وأذابت كل الأجراس دفعة واحدة. اختفى المرتلون والمباخر،ومقرأ الترتيل والمنبر عن عيني الملك الذي كان ممدداً على البلاط، مشلولاً وعيناه ثابتتان على رافدات السقف. لكن الشبح قفز الآن وجلس على رافدة، هناك حيث يمكن لكريستوف أن يراه، باسطاً ذراعيه وساقيه كما لو كان من أجل عرض الديباج المضرج بزينته. وفي أذنيه خفق إيقاع متصاعد يمكنه أن يكون خفقان قلبه أو خفقان الطبول التي كانت تقرع في الجبل. خرج الملك من الكنيسة على سواعد ضباطه يهمهم بلعنات غامضة وهدد جميع سكان ليموناد بالموت إذا ما صاحت الديوك. وفيما كان الملك يتلقى العناية الأولية من ماري لويز والأميرتين، أخذ الفلاحون الذين أرعبهم هذيان الملك، يخبئون دجاجاتهم وديوكهم، في سلال وضعوها داخل آبار عميقة ومعتمة كي تتوقف عن القوقأة والصياح. وأبعدوا الحمير إلى الغابة بضرب العصي. وكموا الخيول تلافياً لتأويل صهيلها تأويلاً سيئاً.

في ذلك المساء دخلت المركبة الملكية الثقيلة ساحة الشرف

Twitter: @alqareah

في سان سوسي يجرها ستة من الخيول. وأدخل الملك مفتوح القميص، إلى جناحه. هوى على فراشه مثل كيس مملوء بجنازير، وكانت عيناه اللتان تلوح منهما القرنية أكثر من القزحية، تعبران عن سخطه لعدم التمكن من تحريك ذراعيه ورجليه. فرك الأطباء جسده الجامد بمزيج من العرق والبارود والفلفل الأحمر. وفي القصر بكامله فاحت الأدوية والنقاعات والأملاح والمراهم في القاعات الغاصة بالموظفين والغانيات. وكانت الأميرتان أثيناس وأميتيست تبكيان في حجر مربيتهما الأمريكية. أما الملكة فلم تكترث كثيراً باللياقة في مثل تلك اللحظات، ركعت في إحدى زوايا غرفة المدخل لتراقب خلاصة جذور وضعت لتغلي على نار من فحم، وكانت انعكاساتها تضفي واقعية على ألوان طنفسة تزين الجدار وتمثل فينوس في مصهر فولكان(*). وطلبت صاحبة الجلالة مروحة لإذكاء النار. كان التنفس سيئاً في ذلك الغسق الممتلىء بالأشباح الساعية إلى تغطية الأشياء. ولم يكن من السهل معرفة ما إذا كانت ثمة طبول تقرع في الجبل. غير أن ضجة إيقاعية كانت أحيانا تأتي من الآفاق البعيدة لتمتزج بطريقة غريبة مع «السلام على مريم» الذي كانت ترتله النساء في قاعة التشريفات، واجدة في أكثر من قلب رجعاً غير معترف به.

6

آخر حجج الملوك

يوم الأحد التالي، مع الغسق، أحسَّ هنري كريستوف أن من شأن ركبتيه وذراعيه المخدرة، الاستجابة بعد بذل جهد كبير. وعندما استدار بتثاقل ليغادر فراشه، ترك رجليه تسقطان على

(*) إله العمل والنار والمعادن عند الرومان، ابن جوبيتر ويونان وزوج فينوس.

Twitter: @alqareah

الأرضية ومكث كأنه مكسور، نصف نائم على ظهره. ساعده خادمه سليمان على الوقوف. حينئذ تمكن الملك من المشي حتى النافذة، بخطى معدودة، مثل إنسان آلي كبير. نادى الخادم الملكة والأميرتين فدخلن الغرفة بهدوء ثم مكثن في زاوية معتمة تحت رسم فروسي لصاحب الجلالة. كن يدركن جيداً أن الجميع يسكرون الآن ويفرطون في السكر. وفي كل زوايا الشوارع توجد قدور كبيرة ممتلئة حساء ولحوماً مشوية تقدمها طباخات ينضحن عرقاً وهن يطرطقن على الموائد بمغارف وملاعق. وفي زقاق يملأه الصياح والضحكات كانت تحتدم رقصة «كالاندا».

تنشق الملك هواء المساء، وأحس بالثقل الجاثم على صدره ينزاح. كان الليل ينبجس من منحدرات الجبل راسماً حدود الأشجار والدروب. وفجأة لاحظ كريستوف أن موسيقيي الكنيسة الملكية يجتازون ساحة الشرف حاملين أدواتهم. كانوا جميعاً موسومين بتشوههم المهني. فعازف القانون كان منحني الظهر مثل أحدب، تحت ثقل قيثاره، أما ذاك النحيل فإن كيساً كبيراً معلقاً على كتفيه يشكل له بطناً مكوراً، وثمة آخر مرر في ذراعه آلة هاليكون موسيقية نافخة. ولختم المسيرة، كان هناك قزم يختفي تحت قبعة صينية مطنطناً بأجراسها مع كل خطوة يخطوها. كان الملك على وشك أن يبدي استغرابه من خروج موسيقييه هكذا وفي مثل تلك الساعة باتجاه الغابة، كما لو كانوا يتأهبون لتقديم حفلة موسيقية تحت شجرة قابوق وحيدة، عندما سمعت في اللحظة نفسها ستة طبول عسكرية. كانت تلك ساعة تبديل الحرس. أخذ صاحب الجلالة يتأمل رماة القنابل ليتأكد أنهم حافظوا أثناء مرضه على طريقة النظام الصارمة التي عودهم عليها. لكن الملك أتى فجأة بحركة غضب. كفت الطبول عن

Twitter: @alqareah

قرع الموسيقى النظامية، توزع إيقاعها في ثلاث دقات مختلفة، لم تعد تحدثها المقارع بل الأصابع.

ـ ها أنهم يقرعون «الماندوكومان».

صاح كريستوف ملقياً طاقيته ذات القرنين إلى الأرض.

وفي هذه اللحظة، تفرق الحراس واجتازوا ساحة الشرف. بلا نظام. ركض الضباط ممتشقين سيوفهم. ومن أعلى نوافذ الثكنات نزل رجال بدلاتهم مفتوحة وبناطيلهم مشمرة. أطلقت رصاصات بندقية في الهواء. ومزق أحد حملة الألوية العلم المزين بتيجان والتابع لفوج ولي العهد وفي البلبلة هربت من القصر مفرزة من فرسان الملك تتبعها بغلات مربوطة إلى عربة ممتلئة بأطقم الخيل. كان هناك هروب عام لذوي البدلات العسكرية وقد ألحت عليهم الطبول العسكرية التي كانت تقرع بقبضات الأيدي. خرج جندي مصاب بالملاريا، وقد فاجأته البلبلة، من المستشفى ملتفاً بملاءة سرير وهو يحاول تسوية قلنسوته. وعندما مر تحت نافذة كريستوف قام بإشارة فاحشة وأطلق ساقيه للريح. ثم ساد الهدوء الغسقي مع صيحات نائحة لطاووس في البعيد. التفت الملك. في عتمة القاعة كانت الملكة ماري لويز والأميرتان أثيناس وأميتيست يبكين. لقد تمت الآن معرفة السبب الذي جعل القوم يفرطون في الشراب ذلك اليوم في هودي كاب.

أخذ كريستوف يمشي في قصره مستعيناً بالدرابزينات والستائر ومساند الكراسي. وقد جعل غياب الغانيات والخدم والحرس، الأروقة والغرف فارغة بطريقة موحشة. كانت الجدران تبدو أعلى، والبلاط اكبر، ولم تعكس قاعة المرايا سوى صورة الملك التي تكررت بلا نهاية حتى أبعد المرايا. وكان ثمة طنين وحفيف وصرير زيزان في صناديق السقف الصغيرة، لم تسمع من

Twitter: @alqareah

قبل وها إنها الآن تعمق الصمت بتناوبها وتوقفها، كانت الشموع تذوب ببطء في شمعداناتها. وفراشة ليل تحلق في قاعة المجلس. وكانت حشرات ترتطم بإطار مذهب، هنا وهناك، ثم تسقط على الأرض بصوت من غمدها، حافظ الأجنحة الذي تتميز به بعض أنواع الجعل الطائرة. سمع كريستوف وقع خطاه في قاعة الاستقبال الكبرى بنوافذها المفتوحة على الجهتين، فتضاعف شعوره بالوحدة. نزل عبر باب الخدم إلى المطابخ حيث كانت النار تنطفىء تحت المشاوي الفارغة. وعلى الأرض قرب طاولة تقطيع اللحم توجد زجاجات خمر فارغة. لقد استولوا على مشاكيك الثوم المعلقة في أعلى المدفأة، ومشاكيك الفطر، ولحم الخنزير المملح والمعروض للتدخين. كان القصر مقفراً ومتروكاً لليل بلا قمر. إنه ملْكُ من يريد أخذه، ذلك أنهم أخذوا حتى كلاب الصيد. عاد هنري كريستوف إلى طابقه. كان الدرج الأبيض كئيباً بارداً تحت أضواء الثريات. دخل خفاش عبر منور الجناح الدائري المقبب، وأخذ يجول تحت الذهب القديم في السقف. اتكأ الملك على الدرابزين باحثاً عن صلابة المرمر.

وفي الأسفل التفت ناحيته خمسة زنوج شبان بوجوه قلقة، وكانوا جالسين على آخر درجة في سلم الشرف. وفي هذه اللحظة أحس كريستوف أنه يحبهم. إنهم «السكاكر» الملكية ديليفرانس، فالنتان، لا كورون، جون، بيان إيمي، الأفارقة الذين اشتراهم الملك من أحد النخاسين وجعلهم غلماناً، لقد عاش كريستوف دائماً على هامش الروحانيات الأفريقية لدى قادة استقلال هايتي الأوائل، محاولاً إضفاء طابع أوروبي على بلاطه. لكنه الآن، عندما صار وحيداً، وبعد أن خانه أدواقه وباروناته وجنرالاته ووزراؤه، لم يبق موالياً له سوى هؤلاء الأفارقة الخمسة، سوى هؤلاء الفتيان الكنغوليين من «الفولا» أو «الماندنغ» والذين

Twitter: @alqareah

ينتظرون مقعين مثل كلاب وفية على رخام الدرج البارد، إنهم آخر حجج الملوك التي لا يمكن فرضها بدوي المدافع. تأمل كريستوف غلمانه طويلاً، وأومأ إليهم بإشارة ودودة ردوا عليها بإجلال حزين، ثم توجه إلى قاعة العرش.

توقف أمام سرادقه المزين بأسلحته. أسدان متوجان يسندان شعار نسب، عليه رمز طائر الفينيق المتوج، مع شعار: «أُبعث من رمادي». وعلى طيات راية صغيرة تتكور حروف شعار «إلهي، قضيتي وسيفي». فتح كريستوف خزنة ثقيلة، مخبأة وراء شرابات الستر. وتناول حفنة من قطع فضية، عليها الحروف الأولى من اسمه. ثم ألقى إلى الأرض بعدة تيجان مختلفة السماكة من ذهب مصمت، تاجاً تلو تاج. وصل أحدها حتى الباب وتدحرج على السلم بقرقعة ملأت القصر. جلس الملك على العرش وتأمل شموعاً صفراء في شمعدانها، وكانت في نهاية ذوبانها، وبطريقة آلية، تلا النص الذي كان مكتوباً في مستهل محاضر حكومته «هنري، بفضل الله وقانون الدولة الدستوري، ملك هايتي، وعاهل جزر السلحفاة، وغوناف وجزر أخرى متاخمة، محطم الطغيان، باعث الأمة الهايتية وولي نعمتها، منشىء المؤسسات الأخلاقية، السياسية والعسكرية، أول ملك متوج في العالم الجديد، المدافع عن الإيمان، مؤسس النظام الملكي والعسكري في سان هنري في كل حضور وكل زمن مقبل، سلاماً...» تذكر كريستوف بغتة قلعة لافيريير، حصنه المشيد هناك في الأعالي، فوق السحاب.

لكن في هذه اللحظة امتلأ الليل بقرع الطبول. تنادت الطبول واستجابت لبعضها البعض من جبل إلى جبل، صاعدة من الشطآن خارجة من الكهوف، راكضة تحت الأشجار نازلة عبر المنحدرات ومجاري الجداول. دوت طبول الرادا، طبول الكونغو، طبول بوكمان، طبول المواشق العظيمة كل طبول الفودو. قرع هائل

Twitter: @alqareah

تضيق دائرته محاصرة سان سوسي. أفق مفعم بأزيز رعد يقترب. زوبعة، مركزها تاج بلا حجاب أو نذير حرب. عاد الملك إلى جناحه ونافذته. بدأت مزارعه وحقول قصبه تحترق. النار تسرع الآن أمام الطبول، تقفز من بيت إلى بيت، من حقل إلى حقل. تصاعد اللهب من مخزن الحبوب، فتساقطت ألواح نصف محترقة في حظيرة العلف، هبت ريح الشمال على القش المحروق في حقول الذرة، فتطاير مقترباً أكثر. وتطاير رماد حارق على مصاطب القصر.

فكر هنري كريستوف من جديد في القلعة. آخر حجج الملوك. لكن تلك القلعة، الوحيدة في العالم، فائقة الاتساع بالنسبة لرجل وحده، ولم يفكر الملك قط في أنه يمكن أن يظل وحده يوماً ما. كان دم الثيران الذي طليت به الجدران الحصينة ملجأً آمناً ضد أسلحة البيض. لكن ذلك الدم لم يوجه أبداً ضد الزنوج الذين كانوا يصرخون قرب الحرائق الزاحفة، وهم يذكرون قوى ويقدمون لها أضحيات دامية. لقد شاء كريستوف المصلح أن يتجاهل «الفودو»، وبضرب السياط كوّن طبقة من السادة الكاثوليك. وها هو ذا يدرك الآن أن الخونة الحقيقيين لقضيته، هذا المساء، هم القديس بطرس بمفاتيحه، ورهبان القديس فرانسوا الكبوشيون والقديس الأسود بينوا، والعذراء ذات الوجه الداكن والمعطف الأسود، والأناجيل التي جعل موظفي حكومته يقبلون كتبها أثناء أدائهم ليمين الولاء، وأخيرا جميع الشهداء الذين كان يأمر من أجلهم بحرق شموع عسلية فيها ثلاث عشرة قطعة ذهبية. وبعد أن ألقى بنظرة غاضبة على قبة الكنيسة البيضاء، المملوءة بتماثيل مديرة ظهورها له، وبصلبان صارت مع العدو، طلب الملك ثياباً نظيفة وعطوراً. أخرجَ الأميرتين ولبس أبهى بدلة للحفلات. زنر خصره بوشاح ذي لونين وهو شعار تنصيبه، ثم عقده على

Twitter: @alqareah

مقبض سيفه. الطبول الآن قريبة جداً بحيث تبدو وكأنها تقرع في القصر، خلف قضبان ساحة الشرف، وتحت درج المدخل الحجري. وفي هذه اللحظة اندلع حريق في مرايا القصر، في الزجاج، على إطارات الكريستال، على كريستال الأكواب والمصابيح والأصص، ومربعات البلور وأصداف المناضد المزخرفة. النار في كل مكان، دون أن يعرف أيها كان انعكاساً لنيران أخرى. كل مرايا سان سوسي تلتهب دفعة واحدة. اختفى البناء كله في تلك النار الباردة التي كانت تحفر الليل محولة كل جدار إلى صهريج مملوء بلهب هائج.

لم تكد طلقة النار تسمع، لأن الطبول كانت قريبة جداً. تركت يد كريستوف السلاح يصوب إلى الصدغ. اهتز الجسد مرة ثانية، وكأنه معلق، ليخطو خطوة، قبل أن ينهار ووجهه على الأرض، بكل شاراته وأوسمته. لاح الغلمان على عتبة القاعة. كان الملك يموت منبطحاً، غارقاً في دمه.

7

البوابة الوحيدة

خرج الغلمان الأفارقة مسرعين من باب سري يفتح على الجبل. وكانوا كالبدائيين يحملون على الأكتاف، غصناً مقلماً بواسطة خناجر، تتدلى منه أرجوحة نوم ذات زردات مكسورة ينفذ منها مهمازا الملك. وخلفهم كانت تسير الأميرتان أثيناس وأميتيست متعثرتين في العتمة بجذور العندم الهندي، وقد انتعلتا صندلين من صنادل وصيفاتهما لتكونا أكثر راحة. أما الملكة فقد تخلصت من حذائها بعد أن أتلفت حجارة الدرب أحد الكعبين. وكان سليمان، خادم الملك، ومدلك بولين بونابرت سابقاً، يختم

Twitter: @alqareah

الموكب متقلداً بندقية وفي يده سيف، وكلما أوغلوا في الغابة المعتمة كانوا يلمحون في الأسفل ألسنة اللهب وقد بدأت رغم ذلك تتوقف عند ساحات القصر. لكن، في إحدى جهات ميلوت اشتعلت النار في حزمات البرسيم داخل الحظائر. وكانت تسمع من بعيد، حمحمات تشبه بالأحرى صراخ أطفال يعذبون، بينما كان الخشب يهوي في زوبعة من شظايا ملتهبة وفي داخلها حصان مذعور يشق طريقه محترق الذيل شائط العرف. وفجأة أخذت أضواء كثيرة تركض داخل المبنى. رقصة مشاعل تنتقل من المطبخ إلى الأنبار، تنفذ من النوافذ المفتوحة، تتسلق الدرابزينات العليا، تسيل من المزاريب، كما لو أن طيراناً غريباً لديدان حباحب مضيئة قد استولى على الطوابق العليا. بدأ النهب. خفف الغلمان خطاهم، مدركين أن ذلك من شأنه تأخير المتمردين لوقت طويل. سدد سليمان بندقيته سانداً أخمصها إلى إبطه.

الفجر يقترب. وصل الهاربون قرب قلعة لافيريير. وأصبح المشي أكثر إرهاقا بسبب وعورة السفح وكثرة المدافع المهجورة على الدرب دون أن توضع على ركائزها، والتي سوف تبقى دائماً ليتآكلها الصدأ. كان النهار يطلع على البحر، باتجاه جزيرة السلحفاة، عندما انسابت جنازير الجسر المتحرك على الحجر في ضجة كئيبة. فتح المصراع المسمر في البوابة الوحيدة ببطء. ودخلت جثة هنري كريستوف إلى أسكورياله(*)، جزمتاه في المقدمة، وهو ملفوف بأرجوحة النوم التي يحملها الغلمان السود. صعد، وثقله يزداد، عبر السلم الداخلي، وكانت قطرات باردة تنزل فوقه من القباب المزيفة. انطلقت موسيقى نوبة الصباح مدوية في أرجاء القلعة مع بداية الصباح. وكانت القلعة مغطاة بفطور حمراء

(*) قصره وصومعته.

Twitter: @alqareah

وماتزال معبأة بالظلام، فانبجست، ذروتها بلون الدم وقاعدتها بلون الصدأ، من سحب الدخان الرمادي الكثيفة التي كانت ترتفع من السهل المحترق.

والآن، أخذ الهاربون يتحدثون عن مآسيهم في ساحة السلاح، لحاكم القلعة. وانتشر النبأ عبر النوافذ والأروقة والأنفاق ليبلغ الغرف والملحقات. وشوهد جنود يأتون من كل مكان يدفعهم ذوو بدلات آخرون كانوا يخرجون من السلالم ويهجرون المدافع وينزلون من مراقب الحصن دون اهتمام بالتعليمات وسُمع هتاف فرح في باحة البرج الرئيسي: لقد أطلق الحراس المساجين فخرجوا من زنزاناتهم وبدأوا يصعدون إلى المكان الذي توجد فيه العائلة المالكة، في ابتهاج ملؤه التحدي. ازداد حصار الحشود حول الغلمان المدعوكي القلنسوات والملكة الحافية والأميرتين اللتين كان سليمان يدافع عنهما بفزع ضد الأيدي الفظة، فتقهقروا قليلاً قليلاً حتى كومة من لياط الكلس والرمل مهيأة لأعمال لم تكتمل، وقد غرزت فيها الرفوش التي هجرها العمال لتوهم. وعندما رأى الحاكم بأن الموقف قد صار صعباً، أمر بإخلاء الباحة فأحدث صوته قهقهات عالية. مد سجين ممزق الثياب وقضيبه يخرج من بنطاله، إصبعه نحو عنق الملكة

ـ عند البيض، حين يموت قائد، يقطع رأس زوجته.

وعندما أدرك الحاكم بأن القدوة التي قدمها مثاليو الثورة الفرنسية منذ حوالى ثلاثين عاماً، كانت حاضرة في أذهان رجاله، فكر بأن كل شيء قد انتهى. لكن الموقف تغير فجأة في اللحظة نفسها بسبب هروب سرية الحراس ونزولهم بسرعة عبر المنحدر. تدافع القوم راكضين في السلالم وفي الأنفاق ليصلوا بسرعة إلى بوابة القلعة. قفْز، زحلقة، سقوط، تدحرج، اندفعوا في دروب الجبل، باحثين عن سبل مختصرة لبلوغ سان سوسي في

Twitter: @alqareah

أقرب وقت ممكن. انتشر جيش هنري كريستوف كالركام الجرفي. ولأول مرة أقفر المبنى الشاسع والتف مع صمت قاعاته الرحب باحتفال مأتمي لقبر ملكي.

فتح الحاكم أرجوحة النوم قليلاً ليتأمل وجه صاحب الجلالة. وبضربة سيف قطع خنصراً وقدمه للملكة التي وضعته في صدرها، فانزلق منه حتى بطنها، مثل دودة متقلصة من البرد. ثم استجاب الغلمان لأمر ووضعوا الجثة فوق كومة من اللياط: بدأت الجثة تغوص ببطء، من الظهر، كما لو كانت تسحبه أيد لزجة. كانت الجثة قد تقوست قليلاً أثناء الصعود، إذ أن الخدم حملوها وهي ماتزال فاترة. لذلك اختفى بطنه وفخذاه أولاً. وظل الساعدان والجزمتان فوق الخليط الرمادي. ثم لم يبق سوى الوجه فوق القبعة ذات القرنين وكانت تغطي الرأس من أذن إلى الأخرى. خشي الحاكم أن يجف اللياط دون أن يبتلع الرأس كله، فضغط بيده على جبين الملك كي يغرزه بطريقة أسرع، وكأنه يقيس درجة حرارته. وأخيرا انغلقت الكتلة على عيني هنري كريستوف الذي تابع الآن هبوطه إلى قلب رطوبة تصير اقل تطويقاً.

وفي الأخير، توقفت الجثة، ملتصقة بالحجر الذي تشكل من الإسمنت وسجنها. اختار هنري كريستوف موته، لكنه لن يقدّر مدى تعفن لحمه المختلط بمادة الحصن نفسها التي نقشت هندسته المعمارية، وأدخلت في دعاماته. وتحول جبل قلنسوة المطران بكامله إلى ضريح لأول ملوك هايتي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الرابع

تملكني الخوف من تلك الرؤى

ولكن منذ

تأملت هذه

تملكني الخوف أكثر.

كالدرون(*)

(*) بيدرو كالدرون دي لاباركا: شاعر مسرحي إسباني ولد في مدريد (1600 ـ 1681).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

التماثيل في الليل

كانت الآنسة أثيناس تعزف على بيانو تم اشتراؤه حديثاً، في رنين أساور وحلي، مرافقة أختها أميتيست التي كان صوتها الحاد قليلاً يضفي وهناً على لحن «تانكريد» لروسيني، أما الملكة فكانت تنسج سجادة مرصودة لدير رهبان بيزا، مرتدية مئزراً أبيض وجبينها معصوب بقطعة قماش معقودة على الطريقة الهايتية، وكانت في الأثناء تتنازع مع قطة تدحرج كبة الخيط. منذ الأيام المأساوية التي أعدم فيها ولي العهد فكتور والرحيل عبر «بورت ـ أو ـ برانس» بفضل تجار إنكليز، كانوا يتعاملون سابقاً مع العائلة المالكة، عاشت الأميرتان صيفاً حقيقياً لأول مرة في أوروبا. كانت روما تعيش ببيوتها المشرعة الأبواب، تحت شمس تجعل الرخام يلمع والروائح تفوح، وأصوات باعة شراب اللوز ترتفع. كانت أجراس المدينة الألف تقرع بتراخ غير معتاد تحت سماء بلا غيوم تذكر بسماء السهل في شهر يناير. وأخيراً أبتهجت أثيناس وأميتيست بالحرارة ونضحتا عرقاً فكانتا تمضيان الوقت حافيتين على البلاط وأزرار تنورتيهما مفتوحة، تلعبان النرد وتحضران شراب الليمون وتعبثان بمحتويات المكتبة

Twitter: @alqareah

حيث درجت كتب القصائد العاطفية بأغلفة من نوع جديد مزينة برسوم على النحاس تمثل مقابر في منتصف الليل وبحيرات أسكتلندية و«سلفات»(*) يحطن بصياد شاب، وفتيات يخفين رسالة حب في تجويفة سنديانة.

كان سليمان أيضاً يشعر بالسعادة في روما الصيفية، أما ظهوره في الأزقة الشعبية الرطبة بالغسيل المنشور، والملوثة بقلوب الكرنب وبقايا اللحم وتفل القهوة، فقد أحدث ضوضاء عارمة. فتح أشد الصعاليك العميان أعينهم لرؤية الزنجي، وكفوا عن عزف الماندولين أو الأرغن الصغير. وقام متسولون آخرون بتحريك ما تبقى من أعضائهم المجدوعة عارضين إرثهم من الجروح والبؤس، تحسباً لأية مشكلة تحدث لهم مع سفير ما وراء البحار. أما الآن فقد صار الأطفال يتبعونه في كل مكان، ينادونه الملك بالتازار محدثين جلبة بزمامير من بصل وقيثارات رديئة. وتقدم له كؤوس الخمر في الحانات. ويخرج الحرفيون من دكاكينهم لدى مروره ليقدموا له حبة طماطم أو حفنة جوز. منذ زمن بعيد لم يظهر وجه أسود حقاً في فلامينيو بونزيو أو أنطونيو لاباكو. وكانوا يطلبون منه أن يقص عليهم حكايته. فيزينها سليمان بأجمل الأكاذيب. كان يدعي أنه ابن أخي هنري كريستوف، وقد نجا بأعجوبة من مجزرة الكاب، ليلة نفذت فصيلة الإعدام حكم الموت في أحد أبناء الملك بحربة، لأن عدة طلقات لم تكف لقتله. ولم يكن للسذج المستمعين إليه فكرة دقيقة عن المكان الذي حدثت فيه تلك الوقائع. فكر بعضهم أنه في مدغشقر، أو في بلاد فارس أو في بلاد البربر. وكان ثمة شخص متأهب دائماً ليمر بمنديله على خدي الزنجي ليتأكد إنْ كان سيتغير لونه. ذات

(*) إناث الـ SYLPHE وهو كائن خرافي في الأساطير السلتية ورمز الهواء.

Twitter: @alqareah

مساء اصطحبوه للتفكه في أحد تلك المسارح الضيقة والنتنة حيث تنشد أوبرات غنائية. وعندما انتهى الكورس النهائي لقصة عن إيطاليين في مدينة الجزائر، دفعوه إلى المسرح. فأحدث دخوله المفاجيء مرحاً صاخباً إلى درجة أن مدير الفرقة دعاه لأن يعيد الكرة كلما رغب في ذلك. أما الآن فقد ابتسم له الحظ أكثر وارتبط بخادمة في قصر بورغيزي(*)، وهي فتاة صلبة من البيامونت لا تحبّ الرجال الضعاف. وعندما تشتد الحرارة كان سليمان يطيل قيلولته على عشب الفوروم(**) حيث ترعى قطعان الغنم. وكانت الآثار تنشر ظلالاً ساكنة على المرعى وعندما يحفر المرء الأرض، يندر ألا يجد عروة فخارية رخامية، حجارة منقوشة أو قطعة مالية صدئة. وهذا المكان كانت تختاره إحدى القحاب أحيانا لتمارس مهنتها مع طالب مدرسة إكليريكية. لكن أغلب زواره عادة كانوا من الناس المجدّين والقساوسة ذوي المظلات الخضراء والإنكليز ذوي الأيدي الناعمة الذين كانوا ينتشون أمام عمود محطم ويسجلون عبارات مضطربة. وعند الغسق كان الزنجي يصعد سلم الخدم في قصر بورغيزي وينكب على فتح زجاجات خمر برفقة البيامونتية. كانت الفوضى عارمة في القصر الذي تغيب أصحابه، مصابيح المدخل ملوثة بالذباب، بدلات الخدم وسخة، الحوذيون دائماً سكارى، المركبة فقدت بريقها، ولا أحد يعرف بأن ثمة عناكب كثيرة في المكتبة التي ما عاد أحد يدخلها منذ أعوام خوفاً من تلك الحشرات الكريهة التي تركض فوق رقبة الزائر أو تسقط داخل الصدار. ولو لم يسكن ابن أخت الأمير، وهو قس شاب، في إحدى غرف الطبقة العليا لاستقر الخدم في الطابق الأول وناموا في أسرّة الكاردينالات القديمة.

(*) قصر بني في روما من 1590 إلى 1607.
(**) ميدان روما.

Twitter: @alqareah

ذات ليلة مكث فيها سليمان والبيامونتية وحيدين في المطبخ بسبب تأخر الوقت، أراد الزنجي، وكان ثملاً، أن يغامر إلى أبعد من الغرف المخصصة للخدم. بعد أن سارا في رواق طويل دخلا باحة واسعة. رخامها مزرق بضوء القمر، يحيط بها صفان من أعمدة تنشر تيجانها في منتصف ارتفاع الجدران. كشفت البيامونتية لسليمان عالم التماثيل الذي يملأ أحد الأروقة الجانبية، بمصباح في يدها. كانت كل التماثيل تمثل نساء عاريات. أغلبهن يضعن برقعاً، تحركه نسمة خيالية في موضع الحشمة بالذات. وفضلاً عن ذلك كانت توجد حيوانات كثيرة إذ أن بعض النساء يحملن إوزة في أحضانهن أو يقبلن عنق ثور أو يقفزن بين كلاب صيد، أو يهربن من رجال لهم قرون وقوائم تيس، لا شك أن قرابة تربطهم بالشيطان. إنه عالم غريب البياض والبرد والثبات، تتحرك أشباحه وتكبر على ضوء القنديل كما لو كانت تلك المخلوقات بعيونها المملوءة بالظلمات ونظراتها الميتة، تدور حول الزائرين الليليين. وبتلك الموهبة التي يتمكن بها السكارى من رؤية أشياء فظيعة من مؤق العين، خيل لسليمان أن أحد التماثيل أنزل ذراعه قليلاً. شعر بجزع وقاد البيامونتية نحو سلم يؤدي إلى الطوابق العليا. والآن ها إن الرسوم تبدو وكأنها تخرج من الجدار فتدب فيها الحياة. فجأة رفع شاب مبتسم أحد الستائر، وثمة فتى يافع متوج بغصن عليه عنقود عنب يدني من شفتيه شبابة صامتة، أو يضع سبابة يده على فمه. بعد أن اجتازت الخادمة رواقاً تزينه مرايا رسمت عليها زهور، قامت بحركة غنجة وفتحت باباً ضيقاً من خشب جوز ثم خفضت قنديلها.

في آخر تلك الحجيرة المنفصلة، كان يوجد تمثال وحيد. تمثال امرأة عارية تماما، ممددة على سرير، وتبدو كأنها تقدم تفاحة. اقترب سليمان من التمثال مترنحاً. وهو يحاول استعادة

Twitter: @alqareah

وعيه. هدأت المفاجأة من سكره قليلاً. لقد تعرف على هذا الوجه. هذا الجسد، هذا الجسد بكامله، يذكره بشيء ما. جس المرمر في قلق كما لو أن لمسه جعل حاستي الشم والبصر عنده تختلطان. رازَ النهدين. مر براحة يده على البطن بحركة دائرية موقفاً خنصره في السرة. داعب انحناء الصلب كما لو أنه أراد إدارة التمثال. بحثت أصابعه عن تكويرة الردفين وربلة الساق الناعمة، وصلابة النهدين. أنعشت رحلة اليدين ذاكرته وأتت له بصور مقبلة من بعيد. لقد جرب هذا اللمس سابقاً. وبالحركة نفسها خفف ألم هذا الكاحل الذي أصابه التواء. المادة مختلفة لكن الأشكال هي ذاتها. تذكّر الآن ليالي الرعب في جزيرة السلحفاة، عندما كان جنرال فرنسي يحتضر خلف باب موصد. تذكر تلك التي ترغب في حك رأسها قبل النوم. فجأة حركته ذكرى جسدية ملحة، وشرع يقوم بحركات المدلك، متبعاً خط العضلات ونتوء أطرافها فيدلك الظهر من أسفل إلى أعلى، ويلامس الصدر بإبهامه ناقراً الجسد هنا وهناك. لكنه أحس فجأة ببرودة المرمر تسيل في معصميه وتشد عليهما بكلابتين قاتلتين. اختنقت صرخة في حنجرته ومكث بلا حراك. أصيب بألم مفاجيء في القلب. ذلك التمثال الذي يتحلى بلون أصفر تحت ضوء القنديل، هو جثة بولين بونابرت جثة تصلبت منذ زمن قصير، وفقدت الحركة والبصر، وربما كان من الممكن إعادة الحياة إليها. أخذ الزنجي ينادي بصوت فظيع كما لو أن صدره تمزق، نداءات هائلة، داخل قصر بورغيزي. صارت له هيأة متوحش، ضرب بكعبيه على الأرضية بعنف، فرنت ضرباته مثل طبول في المصلى السفلي، بحيث تملك الرعب البيامونتية فنزلت السلم بسرعة تاركة سليمان وجهاً لوجه مع فينوس كانوفا(*).

(*) أنطونيو كانوفا: نحات إيطالي (1757 ـ 1822) ومن أعماله منحوتة لبولين بونابرت «فينوس منتصرة» بعد أن تزوجت كاميليو بورغيزي.

Twitter: @alqareah

امتلأت الباحة بالمصابيح والقناديل. خرج الخدم والحوذيون من غرفهم في أقمصة مزررين سراويلهم وقد أيقظهم الصوت الذي كان يدوي في الطابق الثاني. سمع دوي مقرعة باب العربات ثم صداه وهو يفتح لدخول شرطة الحراسة: دخلوا بالتتابع يتبعهم بعض الجيران القلقين. التفت الزنجي بغتة عندما رأى المرايا تضاء. وجعلته الأضواء والقوم المتجمعون في الباحة بين تماثيل رخام أبيض، وظلال القبعات ذات القرنين، والبدلات المحاطة بالضوء، وقوس سيف مجرد من غمده، كل ذلك جعله يتذكر، في رعشة واحدة، ليلة موت هنري كريستوف. حطم سليمان زجاج نافذة بأحد الكراسي، وقفز إلى الشارع. وأثناء الدقة الأولى لأجراس صلاة السحر، كان يرتجف من الحمى، ذلك أنه كان قد أصيب بحمى المستنقعات في «بونتان»، مناشداً بابا ليغبا أن يسمح له بالعودة إلى سان دومينغ. خيل إليه أنه سقط في رعدة الجذب على جبس أحد القبور، كما يحدث هناك لبعض الملهمين الذين يخشاهم الفلاحون ويوقرونهم في آن، لأنهم يتفاهمون أفضل من أي كان مع «سادة المقبرة». حاولت الملكة تهدئة روعه بخلاصة أعشاب مرة، كانت تأتيها من الكاب عبر لندن بوساطة خاصة من الرئيس بوير. كان سليمان يحس بالبرد. وغطى ضباب غير متوقع رخام روما بالرطوبة. كانت ألوان الصيف تذبل من ساعة إلى أخرى. ولتسكين وجع الخادم استدعت الأميرتان الدكتور أنطومارشي، طبيب نابليون في سانت هيلين، والذي يعرف بمهارة مهنية خاصة كطبيب تجانسي. لكن الأقراص التي أمر بها ظلت في علبها. أشاح سليمان بظهره عن الجميع، متأوهاً قبالة الجدار المغلف بورق أخضر ذي أزهار صفراء، محاولاً بلوغ إله في الداهومي البعيدة، في أحد مفترقات الطرق، مع قضيبه الأحمر، منتصباً على عكاز يحمله لهذا الغرض:

Twitter: @alqareah

بابا ليغبا ساعدني آغو... يي
بابا ليغبا أعدني حيث كنت... يي

2

البيت الملكي

كان تي نويل أول المشاركين في نهب قصر سان سوسي. لذلك صارت آثار بيت لونورمان دي ميزي القديم مؤثثة بطريقة غريبة. لم يكن ثمة سقف، إذ تنقص نقطتا استناد لوضع رافدة أو عصا طويلة، لكن خنجر الشيخ كشف عن حجارة أخرى ناقصة، تُظهر أجزاء من قاعدة البناء، وفرجة نافذة وجزء من جدار تلوح عبره أيضاً أفاريز قاعة الأكل النورمندية القديمة. وليلة امتلأ السهل برجال ونساء وأطفال يحملون على رؤوسهم ساعات حائط وكراسي وقباب أسرة وشمعدانات وكراسي ذات مساند للصلاة ومصابيح وقصاعاً، كان تي نويل قد عاد إلى سان سوسي عدة مرات. وهكذا صار يملك مائدة مطعمة بالنحاس وضعها أمام المدفأة الممتلئة بالقش والتي يستخدمها كغرفة، ولكي يتقي الأنظار فقد علق ستاراً مزيناً بشخوص نصف ممحوة على أرضية ذهبية. وكانت سمكة من نوع «قيصانة البدر»، هدية من الجمعية العلمية الملكية في لندن إلى الأمير فكتور، مرمية على بلاط هشمته النباتات والجذور، قرب علبة موسيقى وإناء سكاكر تبدو من زجاجه السميك فقاعات لها كل ألوان قوس قزح. كان قد نهب أيضاً دمية ترتدي فستان راعية، مقعداً مريحاً مع وسادته المدببة وثلاثة أجزاء من «الموسوعة» كان يجلس عليها عادة ليأكل قصب السكر.

لكن الشيء الذي كان يُشعر الشيخ بالسعادة حقاً إنما هو امتلاكه لسترة كان يرتديها هنري كريستوف، وهي من حرير

Twitter: @alqareah

أخضر، ولها كمان من الدانتيلا البرتقالية. كان يرتديها في كل وقت، رافعاً مظهرها الملكي بقبعة مجدولة من قش، ثناها مثل قبعة ذات قرنين وزينها بزهرة حمراء كشارة عسكرية. كان يُشاهد بعد الظهر بين أثاثه المعروض في الهواء الطلق، وهو يلعب بالدمية التي تفتح عينيها ثم تغمضهما، أو بعلبة الموسيقى التي يعبئها فتكرر طول النهار اللحن الألماني نفسه. أما الآن فإن تي نويل صار يتكلم باستمرار. يتكلم مفتوح الذراعين، وسط الدروب. فيتحدث مع الغسالات الجاثيات في الجداول الرملية، عاريات الصدور، يتحدث مع الأطفال الذين يرقصون رقصات دائرية. لكنه كان يتحدث، خاصة عندما يجلس خلف طاولته ويمسك بغصن من شجرة جوافة بمثابة صولجان. كان ذهنه مسكوناً بذكريات مبهمة عن أشياء رواها ماكندال الأكتع في زمن هو من البعد بحيث لم يكن ليتوصل إلى تحديده. وشعر في تلك الأيام أنه مكلف بمهمة ينبغي أن يحققها، رغم أنه لم يتبين طبيعة تلك المهمة بأي إيعاز أو علامة. وهي في كل الأحوال شيء ما عظيم وجدير بالحقوق التي حصل عليها ذاك الذي عاش منذ أعوام عديدة في هذه الدنيا، حيث زرع في هذه الضفة من البحر وفي تلك، أطفالاً لا يذكرونه ولا يهتمون إلا بأبنائهم. وفضلاً عن ذلك كان من الواضح أن أحداثا جليلة سوف تقع. فعندما تشاهده النساء يلوح في أحد الدروب، كن يلوحن بمناديل فاقعة علامة إجلال مثل أشجار النخيل التي احتفت ذات يوم أحد بيسوع. وعندما يمر أمام كوخ، تدعوه العجائز للجلوس ويأتين له بقليل من عرق قصب السكر في طاس، أو بسيجار لففنه للتو. ثم أن تي نويل حضر رقصة طبول فاستحوذ عليه ملك أنغولا وصار يهذي بخطبة طويلة تملأها الألغاز والوعود. وظهرت قطعان في مزرعته.

Twitter: @alqareah

إذ لا شك أن الحيوانات التي كانت ترتع منذ قليل ما بين الأنقاض هي هدايا من أتباعه. وكان تي نويل جالساً في مقعده المريح، سترته العسكرية مفتوحة وقبعة القش مغروزة في رأسه، وهو يحك بطنه العاري بحركة بطيئة ويلقي بأوامره للريح. لكنها أوامر حكومة هادئة لا يهدد حريتها طغيان بيض ولا سود. وكان الشيخ يردم فراغات الأنقاض بأشياء جميلة، فعابر السبيل يعين وزيراً والحصَّاد يسميه جنرالاً، وكان يُقطع بارونات ويوزع أكاليل ويبارك بنيات ويقدم الزهور مقابل الخدمات. وهكذا انشأ رتبة البحر الباسيفيكي ورتبة الياسمين ورتبة هدايا رأس السنة، لكن أهمها رتبة عباد الشمس، بسبب الألوان. ونظراً لكون المكان المبلط الذي يستخدمه بمثابة قاعة اجتماعات، كان مناسباً للرقص، فإن القصر كثيراً ما كان يمتلىء بفلاحين يجيئون بأبواقهم المصنوعة من البامبو وبطبولهم. وتحرق بعض الروافد الخشبية القديمة فوق أغصان متفرعة، ويرأس تي نويل الحفلة مزهواً ببدلة الفرسان، جالساً بين بابا السهوب، ممثل كنيسة الآبقين، ومحارب قديم، من أولئك الذين انتصروا على روشمبو في فرتيير، وقد احتفظ للمناسبات الكبرى ببذلته العسكرية ذات اللون الأزرق الباهت والأحمر الذي أمسى بلون الفراولة (الفريز) بسبب الأمطار الغزيرة التي تدخل بيته.

3

مساحو الأراضي

ذات صباح قدم مساحو الأراضي. وكان ينبغي رؤيتهم في غمرة العمل لفهم الذعر الذي يمكن أن يحدثه حضور تلك الكائنات التي تذهب وتجيء مثل الحشرات. جاء المساحون إلى السهل من بورت ـ أو ـ برانس البعيدة، فوق السفوح الضبابية. كانوا أناساً

Twitter: @alqareah

صامتين، ذوي سحنة فاتحة اللون كثيراً ويرتدون أثوابا عادية وهذا ما ينبغي الاعتراف به. لكنهم كانوا يمدون على الأرض أشرطة طويلة، ويغرزون أوتاداً ويحملون فادناً مطماراً(*)، وينظرون عبر أنابيب، وبذريعة ما ينتفشون بمساطر وأكواس. وعندما رأى تي نويل أن أولئك الأشخاص يذرعون مزرعته تحدث إليهم بعزم. لكن المساحين لم يكترثوا له. كانوا يذهبون بوقاحة هنا وهناك ويقيسون كل شيء ويسجلون ملاحظات على كتبهم الرمادية بأقلام نجارين. لاحظ الشيخ ساخطاً أنهم يتكلمون الفرنسية، تلك اللغة التي نسيها منذ أن لعب عليه السيد لونورمان دي ميزي بالورق وربحه في سانتياغو دي كوبا. وصفهم تي نويل بأبناء الكلب وأمرهم أن ينسحبوا مهدداً. وصاح بهم طويلاً إلى حد أن أحد المساحين انتهى بأن أمسك به من عنقه ورماه خارج مجال رؤية نظارته مع ضربة بمسطرة على بطنه. اختفى الشيخ في مدفأته مطلاً برأسه من وراء الستار لينبح بالشتائم. لكنه في الغداة عندما قصد السهل بحثاً عن غذاء، لاحظ أن المساحين موجودون في كل مكان وأن ثمة مولدين على الخيول يرتدون اقمصة مفتوحة الياقة وأحزمة حريرية وجزمات عسكرية، يشرفون على أعمال حراثة وتحديد للأراضي يقوم بها مئات الزنوج تحت حراسة مشددة. وكان العديد من الفلاحين يركبون حميرهم ويحملون دجاجهم وخنازيرهم مبتعدين عن أكواخهم وسط صراخ النساء ودموعهن، ليختبئوا في الجبال. وعلم تي نويل من أحد الهاربين أن الأعمال الزراعية صارت قسرية وأن السوط هو الآن بين أيدي المولدين الجمهوريين، سادة سهل الشمال الجدد. لم يكن ماكندال قد توقع العمل الإجباري ولا توقعه بوكمان الجامايكي. إن حضور المولدين

(*) شاقول بناء.

Twitter: @alqareah

صرعة جديدة لم يفكر فيها خوسيه أنطونيو أبونتي الذي قضى عليه المركيز دي سوميرولوس، وقد شهد تي نويل انتفاضته منذ مرحلة عبوديته الكوبية. ولا شك أن هنري كريستوف نفسه لم يكن ليخطر على باله أن أراضي سان دومينغ سوف تستخدم ذات يوم لاغناء تلك الأرستقراطية ما بين ماءيْن، تلك الطبقة الخلاسية التي أمست اليوم تستولي على المزارع القديمة والامتيازات. رفع الشيخ نحو القلعة نظره الكدر الذي ما عاد ليبلغ مثل تلك الآفاق البعيدة. لقد تحجر فعل هنري كريستوف وما عاد يسكن بيننا. وما بقي من شخصيته الخارقة، هناك في روما، سوى إصبع تطفو داخل قارورة من كريستال صخري، ملأى بماء بارود. واقتدت به الملكة ماري لويز، بعد أن رافقت ابنتيها إلى حمام كارلسباد، فأوصت بأن تحفظ قدمها اليمنى في الكحول، من قِبَل كبوشيي بيزا، في كنيسة شيدت بفضل كرمها الورع. فكر تي نويل طويلاً لكنه لم يجد وسيلة لمساعدة أتباعه المنحنين من جديد تحت السوط. وبدأ الشيخ يشعر باليأس أمام ذلك الحديد وتلك القيود التي يعاد طرقها من جديد باستمرار، أمام تزايد البؤس الذي يستسلم له الأكثر خضوعاً كدليل على لا جدوى التمرد. وخاف تي نويل أن يستخدموه في الحراثة رغم عمره. لذلك عادت ذكرى ماكندال لتسكن ذاكرته. وما دام الشكل الإنساني يولد كل هذا البؤس، فإن من الأفضل التخلص منه فترة من الزمن، ومتابعة أحداث السهل بمظهر أقل صخباً. وما إن صمم تي نويل حتى فوجيء بالسهولة التي يتحول بها المرء إلى حيوان عندما تكون له السطوة الضرورية. وليبرهن على ذلك، تسلق شجرة، وأراد أن يتحول إلى طائر، وفي الحين، صار طائراً. تأمل المساحين من فوق غصن وهو يغرز منقاره في اللب البنفسجي لثمرة «كايميت». وفي الغداة أراد أن يصير جواداً فصار جواداً، لكن، توجب عليه

Twitter: @alqareah

أن يهرب من خلاسي رماه بأنشوطة حبل كي يخصيه بسكين مطبخ. وتحول إلى زنبور فتعب بسرعة من الهندسة الرتيبة في بناء الشمع، صار نملة (لقد ساورته هذه الفكرة السيئة) فأُجبر على حمل أثقال كبيرة، على دروب لا تنتهي، تحت حراسة نمل آخر له رؤوس ضخمة لا يذكره إلا بآمري لونورمان دي ميزي وحراس كريستوف والمولدين الحاليين. أحيانا كانت سنابك حصان تمزق صفاً من العمال، وتقتل مئات الأشخاص. وبعد الحادث يعيد النمل ذو الرؤوس الضخمة تنظيم الصفوف فيعاد رسم الدّرب الضيق، ويعود كل شيء كما كان، في ذهاب وإياب منهمكين. ولأن تي نويل ليس نملة إلا بالتحول ولا يعتبر نفسه متضامناً مع النوع، فقد اختبأ ذلك المساء، وحيداً تحت طاولته، فحمته من مطر ناعم ومثابر جعل الحقول تفوح برائحة قش وحلفاء مبلولة.

4

حمل الرب

كان الطقس يوحي بنهار حار مع سماء مكفهرة. وكان الندى الليلي الذي يغطي نسيج العنكبوت قد بدأ يتبخر عندما نزلت جلبة من السماء على مقر تي نويل. كان إوز الاقنان القديمة في سان سوسي ينزل راكضاً متعثراً في سقوطه، وقد نجا من النهب لأن الزنوج لا يحبون لحمه، فعاش حراً، كل ذلك الوقت في شعاب الجبل. استقبله الشيخ بتعجب. كان سعيداً بزيارة الإوز، لأنه يدرك جيداً ذكاء الإوز ومرحه، ذلك أنه راقب حياته النموذجية عندما حاول السيد لونورمان دي ميزي قديماً أن يوطنه بصعوبة في مناخ جديد. وبما أن الإوز غير متعود على الحرارة فإن إناثه لم

Twitter: @alqareah

تكن لتبيض سوى خمس بيضات كل سنتين. وكان زمن بيض الإوز موضوع سلسلة من الطقوس انتقلت من جيل إلى جيل، فعلى حافة جدول قليل العمق تتم حفلة الاقتران، في حضور عشيرة إناث الإوز وذكوره. وكان الذكر يرتبط بأنثاه مدى الحياة باحتضانها وسط الطيور التي تكاكي معاً بفرح. وترقص رقصاتها الطقسية المكونة من استدارات سريعة وعرقصة وضرب للأرض بالقوائم وحركات من العنق في خط متعرج. ثم تشرع الجماعة في بناء العش. وأثناء الحضانة يحرس الذكور العروس، ويظلون(*) مترصدين طيلة الليل، حتى وإن وضعوا عيونهم المستديرة تحت الجناح. وعندما يهدد الفراخ الرعناء والمغطاة بزغب أصفر كناري، خطر ما، يقود ذكور الإوز الأكبر سناً الهجوم بالمناقير وبالحواصل من دون تراجع أمام أي كلب حراسة أو فارس أو عربة. فالإوز «قوم» مرتبون جادون ونظاميون: لا يخضع الفرد إلى فرد آخر من النوع نفسه. وكان مبدأ السلطة المتجسد في *الذكر الأكبر* هو المبدأ الضروري حصراً للمحافظة على النظام، داخل العشيرة، على طريقة الملك أو شيخ المجالس الأفريقية القديمة. تعب تي نويل من تحولاته الخطرة واستخدم قواه الخارقة ليتحول إلى إوزة. ويتقاسم حياة السرب الذي استقر في مزرعته.

لكنه عندما رغب في أن يشغل مكاناً داخل العشيرة، لم ير حوله سوى مناقير معادية ذات أطراف مسننة، وأعناق ممدودة تدل على رغبة في الحفاظ على بعد المسافة. وتركوه على انفراد، وحيداً على تخوم أحد المراعي، بينما كان سور أبيض من ريش يرتفع حول الإناث اللامبالية. عندئذ حاول تي نويل أن يكون

(*) اضطررنا إلى استخدام جمع العاقل من أجل إيحاءات السياق. م.

Twitter: @alqareah

حذراً، فلا يفرض حضوره كثيراً، ويوافق على ما يريده الآخرون. فلم يقابل إلا بالكراهية وإعلاء الأجنحة. ولم يفده في شيء، كشف مخبأ، فيه بُقول مائية ذات جذور طرية، لإناث الإوز. كانت الأذناب الرمادية تهتز علامة عدم الرضى، والعيون الصفراء تنظر في ارتياب متكبر، من جهتي الرأس. وبدت العشيرة الآن مثل جماعة أرستقراطية، منغلقة انغلاقاً مطلقاً على كل فرد ينتمي إلى طبقة أخرى. فذكر إوز «سان سوسي» الأكبر ليس من شأنه أن يتسامح في أي تعامل مع ذكر إوز «دوندون». ولو أنهما تقابلا وجهاً لوجه لاندلعت حرب بينهما. لذلك أدرك تي نويل مبكراً أنه حتى لو ألح سنوات عديدة فلن يتمكن من المشاركة في وظائف العشيرة وطقوسها. ولقد افهموه بوضوح أنه لا يكفي أن يكون إوزة حتى يظن بأن كل الإوز متساو. لم تغن أية إوزة معروفة أو ترقص يوم عرسه. ولا واحدة، من بين الأحياء، رأته يولد. كان يتقدم من دون أي ملف يثبت نقاء دمه، أمام أربعة أجيال راحية القوائم. والخلاصة أنه كان مجرد دخيل.

فهم تي نويل بغموض أن تخلي الإوز عنه إنما هو عقاب لجبنه. لقد تحول ماكندال إلى حيوان ليخدم البشر، لا ليتخلى عنهم. وفي هذه اللحظة عاد الشيخ إلى الوضع البشري وتملكه صفاء خارق. وفي ثانية واحدة، عاش أهم مراحل حياته، شاهد من جديد أولئك الأبطال الذين كشفوا له عن قوة أسلافه الأفريقيين القدامى وغناهم، وجعلوه يؤمن بمستقبل أفضل. أحس بالشيخوخة تحت ثقل قرون عديدة. كان ثمة إرهاق كوني لكوكب مثقل بالحجارة، يسقط على كتفيه العاريتين من اللحم بعد عمرٍ من الضرب والعرق والثورات. لقد تحمل تي نويل نصيبه من المهمات الوراثية، ورغم أنه بلغ آخر درجة من البؤس، فإنه يترك بدوره ذلك الإرث كاملاً. لقد عاش زمنه. وها هو الآن يفهم أن

Twitter: @alqareah

الإنسان لا يعرف أبداً لمن يتعذب أو يأمل. إنه يتعذب ويأمل ويعمل من أجل أناس لن يعرفهم أبداً، وبدورهم سوف يتعذبون، يأملون، ويعملون من أجل آخرين لن يكونوا سعداء أيضاً، ذلك أن الإنسان يسعى دائماً وراء سعادة توجد أبعد مما هو معطى له بالقسمة. لكن عظمة الإنسان تتمثل تحديداً في محاولة تحسين العالم، وإلزام نفسه بمهمات. وفي مملكة السموات لا توجد عظمة يمكن بلوغها، لأن كل ما فيها هو مراتبية قائمة، وجود بلا نهاية، استحالة تضحية، راحة، ملذات. ولهذا السبب فإن الإنسان الذي يسحقه الألم والمهام الشاقة، الإنسان الجميل في بؤسه، الإنسان القادر على الحب وسط المصائب، لا يستطيع أن يجد عظمته، وأعلى قيمة له إلا في *مملكة هذا العالم*.

صعد تي نويل فوق طاولته، ملوثاً زينتها المرصعة بقدميه الخشنتين. وباتجاه مدينة الكاب، كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وكأنها دخان حريق، كأنها مثل تلك الليلة التي دوت فيها كل أبواق الجبل والساحل. ألقى الشيخ إعلانه إلى السادة الجدد، آمراً أتباعه بمهاجمة الأعمال المتغطرسة للمولدين الذين تولوا السلطة الآن. وفي هذه اللحظة اندفعت من المحيط هبة ريح خضراء فعصفت بسهل الشمال ودخلت وادي دوندون في أنين هائل. وفي حين كانت ثيران منحورة تخور على قمة «قلنسوة المطران»، طار المقعد والستارة وأجزاء «الموسوعة» وعلبة الموسيقى، والدمية والسمكة المحفوظة، دفعة واحدة مع انهيار آخر الأنقاض في المزرعة القديمة. مالت كل الأشجار وذراها باتجاه الجنوب، مجتثة الجذور. وطوال الليل سقطت أمطار من ماء البحر على سفوح الجبل، تاركة عليها نثاراً من ملح.

ومنذ تلك اللحظة لم يعرف أحد شيئاً عن تي نويل ولا عن

Twitter: @alqareah

سترته العسكرية الخضراء ذات كمي الدانتيلا البرتقالية اللون ما عدا، ربما، ذلك الكاسر المبتل، ذلك العقاب الذي ظل ينتظر مبسوط الجناحين مثل صليب من ريش ثم انتهى بأن طوى جناحيه وانقض في اتجاه غابة تماسيح الكايمان.

Twitter: @alqareah

أليخو كاربنتييه

ولد أليخو كاربنتييه في هافانا عام 1904. وكان أبوه مهاجراً من أصل فرنسي. درس في كوبا ثم خاض العمل الصحافي ابتداءً من 1922 وحتى 1927 عندما شارك في توقيع بيان ضد الطاغية ماتشادو فأودع السجن سبعة أشهر.

بعد ذلك ساعده دسنوس في السفر إلى فرنسا حيث قابل كينو وليريس وآرتو وبريفير وغيرهم وعمل في راديو باريس مع دسنوس وديهارم ثم في راديو لوكسمبورغ.

سافر وألقى محاضرات في فنزويلا حيث أقام أربع عشرة سنة ثم عاد نهائياً إلى كوبا عام 1959 منذ انتصار الثورة الكوبية.

أمضى أعوامه الأخيرة سفيراً مستشاراً في سفارة كوبا بفرنسا، حيث مات في 24 نيسان 1980.

من أعماله الروائية: تقسيم المياه، صيد الإنسان، عصر الأنوار، حرب الزمن، الرقصة المقدسة، «مملكة هذا العالم» إلخ...

Twitter: @alqareah

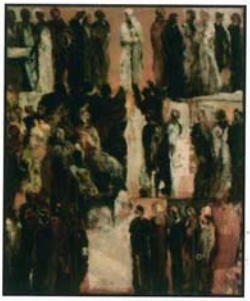

مملكة
هذا العالم

إن «مملكة هذا العالم» من روايات أليخو كاربنتييه الأولى التي تنطلق من معطيات تاريخية ووقائع حدثت في سان دومينغ، الاسم القديم لجزيرة هايتي التي تقع شرقي كوبا وتضم دولتين مستقلتين: جمهورية الدومينيكان وجمهورية هايتي.

وتقدم الأحداث التاريخية إطاراً لرواية باطنية من جوانب عديدة، تحفل بالسحر والتحولات والتقمص في ديانة «الفودو» وهي مزيج من عبادة ذات مبدأ إحيائي ينسب روحاً للظواهر الطبيعية ويحاول جعلها مؤاتية بطقوس سحرية، تستعير عدة عناصر من الشعائر الكاثوليكية لتشكل ديانة زنوج جزر الأنتيل، في مواجهة المذابح والدمار والحرائق التي تحفل بها أحداث الرواية.

«أليخو كاربنتييه» روائي كوبي ولد في هافانا عام 1904، وكان أبوه مهاجراً من أصل فرنسي. وهو من الكتّاب المناضلين الذين قاوموا على مدى تاريخهم عسف الديكتاتوريات التي عجّت بها بلدان أميركا اللاتينية. وتعتبر هذه الرواية من أهم رواياته التي تحفل بتباشير «الواقعية السحرية» التي أدهشنا بها أدب تلك القارة.